القسم الأول

الزمان والبرابرة

الفصل الأول

العالم الرومانى

إن إجالة الفكر فى روما الإمبراطورية تعرض أمام عين الخيال صورة للحرب والفتوح وللكتائب الزاحفة فى ظل النسر المظفر لإخضاع الشعوب القصيّة . على أن الحقيقة البارزة التى يتسم بها القرنان الأولان من الحقبة المسيحية ، هى ذلك السلام العميق الذى ران على حوض البحر المتوسط ، وعم الشطر الأكبر من أوربا الوسطى والغربية . وفى عهد أوغسطس كانت الإمبراطورية امتدت فعلا إلى أقصى اتساع لها[1] ، ومن ثم لم يعد همّ خلفائه منصرفا فى معظم أمرهم إلا إلى ربط أطراف البلاد بعضها ببعض . وامتدت داخل الحواجز العظيمة المحصنة على الراين والدانوب والفرات ، شبكة من الطرق تغطى ممتلكات روما المترامية ، وتوصل بين تخوم اسكتلندة وبين الصحارى العربية . وكانت تسرى فى هذه الطرق حركة مرور وتجارة لم تبرح فى ازدياد مستمر ، لا يقتصر أمرها على الجيوش والموظفين ، بل تتجاوز ذلك إلى التجار والسلع ، فضلا عن السائحين . وسرعان ما تمت حركة تبادل للسلع التجارية بين الولايات المختلفة ، ولم تلبث تلك الحركة أن بلغت مرتبة لم يسبق لها نظير فى التاريخ ، ولم تتكرر ثانية على صفحته إلا منذ بضعة قرون خلت . وكانت تُحمل فى هذه الطرقات : المعادن المستخرجة من مرتفعات أوربا الغربية ، والجلود والأصواف والأنعام الحية من مراعى بريطانيا وأسبانيا

---

(١) مع بضع استثناءات هامة قليلة مثل بريطانيا والمناطق الواقعة شمال الدانوب وشرق الفرات الأعلى .

وشواطئ البحر الأسود والخمر والزيت من بروفانس وأكيتانيا ، والخشب والقار والشمع من جنوب الروسيا وشمال الأناضول ، والفواكه المجففة من سورية والرخام من سواحل بحر إيجه ، وأهم من ذلك كله الحبوب من مناطق زراعة القمح بشمال إفريقية ومصر ووادى الدانوب سداً لحاجات المدن الكبرى ؛ كل هذه السلع كانت تنتقل بملء الحرية من أقصى الإمبراطورية إلى أقصاها ، فى ظل نظام للنقل والتسويق بالغ الكفاية والدقة .

الصناعة والتجارة

تلقت صناعة السلع المعدة للتصدير بالجملة أيضاً دفعة قوية ، فنمت الصناعات الزاهرة بكل ولاية من الولايات . وكانت التجارة وأعمال المصارف نشطت منذ عدة قرون فى العالم الهللينستى ، وكان الطرف الشرقى للبحر المتوسط أول من أفاد من النظام الجديد . وجملة القول ، إن هذه الولايات الشرقية كانت مناطق الإنتاج والصناعة ؛ على حين أن الغرب كان مستودع المواد الخام . وهكذا كانت دمشق وأنطاكية والإسكندرية تصدر البطاطين والبسط والسجاجيد ونسيج الكتان وأرقى أنواع الخزف وصنوف الزجاج ، الرخيص منه والنفيس ، والجواهر والعطور وأدوات الزينة . ومع ذلك فإن القرنين الأولين شهدا حركة انتقال للصناعة نحو الغرب . وأخذت الثروات تتكدس بأرض الحنطة ، فضلا عن مناطق إنتاج الخامات مثل بلاد الغالة وأسبانيا وإيطاليا وإفريقية ، ورغبة فى تلبية طلبات الطبقات الثرية والمترفة ، تزايدت هجرة اليونانيين والمصريين والسوريين إلى الغرب ليمارسوا مهاراتهم أطباء وفنانين ومعلمين وموسيقيين وصاغة للفضة . وكان السوريون بوجه خاص أعظم تجار ذلك الزمان ؛ فإنهم كانوا ينتشرون فى كل أرجاء أوربا ، مغامرين أفراداً ،

أو كمجتمعات من التجار ، أو يوجدون بمدن أفريقية وأسبانيا ، أو يشتد تزاحمهم على امتداد طرق التجارة بوادى نهر بو أو حوض الراين . ففى القرن الخامس نفسه ، يلاحظ جيروم بمرارة وجودهم ، ويقرر أنهم يواصلون حركتهم المربحة بين أنقاض عالم منهار . أما تقدم الصناعة فأكثر ما يدل عليه دلالة مباشرة ، ظهور مصانع فى الغرب ذات حجم ضخم ، منها مثلا مراكز لصنع الخزف والزجاج بوسط فرنسا وجنوبها ، وبوادى نهر الراين أو ببريطانيا ، حيث تمكنت السلع المنتجة على أساس الإنتاج الكبير من القضاء على حب الأفراد للتصميمات الكلتية أو توجيه ذلك الحب وجهة أخرى .

وفضلا عن ذلك لم تكن التجارة تقتصر بأى حال على داخل حدود الإمبراطورية . فإن الحدود لم تكن من هذه الناحية حداً فاصلا ، بل كانت على العكس من ذلك خط مستوطنات خارجية قائمة على التخوم ، يصل بين نهايات الطرق البرية الرومانية ، ويهيىء للبرابرة النازلين خارجها أسواقا غاصة بالسلع . كانوا يقايضون زينات الخيول ورشماتها والجواهر والنقود والخزف وحليات البيوت والأدوات والآلات الزراعية على ما لدى البرابرة من رقيق وكهرمان وجلود الحيوان ، فتنقل من مصانع الغاليين الرومان[1] (Gallo - Roman) على نهر الراين وتنفذ إلى أعماق وسط ألمانيا ، وتشق طريقها إلى معاقل الرؤساء بالدانيمركة أو جنوب السويد . وكانت السفن التجارية الرومانية ترسو بالموانى الإرلندية ، أو ترتاد جنوباً ساحل أفريقية الغربية المكسو بالغابات . على أن التجارة مع الشرق كانت تنطوى على قدر أكبر من الاحتمالات الرومانسية . وكانت تنتهى فى البحر الأحمر عدة

---

(١) الغاليو الرومان أو (الغالو رومان) هم الرومان النازلون ببلاد غالة أى فرنسا . (المترجم)

خطوط ملاحية عظيمة ، وكان ذلك البحر يتصل بالإسكندرية بمرفأ وقناة وطريق للقوافل يحرس بكل عناية بقوات من الشرطة ، وهو مزود بمستودعات تخزين وصهاريج مياه . وكان أحد هذه الخطوط الملاحية فى البحر الأحمر يمتد جنوباً عبر بلاد الحبشة والصومال حتى أوغندة ، وإلى الجنوب منه كان تجار العرب يحتفظون فى يدهم بزمام احتكار التجارة ، وكان العاج ومحار السلاحف والزنوج الأرقاء المجلوبون من الداخل ، يُجمَعون مقايضة على الزجاج والأقمشة الزاهية الألوان ، فضلا عن الفئوس والحلى المصنوعة من الشبهان[1] والنحاس . وكان الركن الجنوبى الغربى من بلاد العرب يصدر البخور والأفاويه إلى الغرب ، وينقل فوق ذلك محصولات بلاد الهند والصين كالقطن والحرير وخشب الساج والآبنوس وخشب الصندل ، التى تفرغها السفن بموانئ البحر الأحمر وبالمرافئ الواقعة عند رأس الخليج الفارسى ، ومنها تنقل بطريق القوافل حتى تصل آخر الأمر إلى الإسكندرية ، أو إلى أحد المراكز التجارية السورية كدمشق أو أنطاكية . ثم لم يلبث القوم أن وفقوا إلى اكتشاف الرياح الموسمية ومنفعتها لهم فى التجارة ، وأن بدءوا التجارة المباشرة مع الهند ، وهى حال استبعدت الوسيط التجارى العربى ، وسرعان ما وظف فيها تجار الإسكندرية وسورية أموالهم . وقد علم استرابون أن عدداً من السفن لا يقل عن مائة وعشرين سفينة كان يسافر منها كل عام إلى الهند ، وتتحدث مصادر أخرى عن مستعمرات التجار الأجانب الذين استقروا بمدن شاطئ مالابار الساحلية ، وعن الموانئ العظيمة بجنوبى الهند وسيلان ، بما تحويه من نظم للمنارات وخدمات من المرشدين ، ومستودعاتها الضخمة وأرصفتها ، وعن

---

(١) الشبهان والشبه : النحاس الأصفر — كما ورد بالمعاجم . (المترجم)

وصول السفن التجارية[١] الرومانية الضخمة إليها ، وهى تنزل شحناتها من الغلمان المغنين والقيان المرسلين إلى حريم أمراء الهند ، وعن أوانيها الفضية ونسيجها الكتانى الزاهى ، وعن نبيذ البحر الأبيض الذى تحمله ، وكنوز العملة الذهبية الإمبراطورية ، التى تُدفع ثمنا لجوالق[٢] الفلفل الضخمة وبالات القطن الثقيلة ، وشتى صنوف الجوهر من ماس ولؤلؤ وزبرجد ، والعقاقير والعطور التى كانت تحملها تلك السفائن إلى العالم الغربى . وأخذ التجار يتوغلون برحلاتهم رويداً رويدا نحو الشرق : حتى عرفوا مصب الكانج وشبه جزيرة الملايو ، ثم استطاع تجار الإمبراطورية الرومانية إنشاء علاقات تجارية مع الموانئ الصينية عام ١٦٠ للميلاد على أن أيام عظمة التجارة الرومانية كانت ولّت آنذاك : فإن الزمن أعد عند ذاك لأوربا قروناً مترادفة من الفوضى ، فلم تتحقق من ثم احتمالات تأثير الصين على حضارتنا .

وكان لسهولة المواصلات ويسر تبادل السلع أثرهما القوى فى نشر الوحدة ، بل إذاعة الاتساق فى الدولة الرومانية . وكانت نتيجة ذلك أن اقتسمت غالبية سكانها مستوى مشتركا للعيش ، فلم يكن الفارق كبيراً بين الأدوات التى تستعملها الدور (الفيلات) بجنوب إنجلترة ومثيلاتها بالجزائر ، مثل المصابيح وأكواب الشراب ووسائل التدفئة والزخرفة الداخلية . وكان الدينار الذهبى يحظى فى منطقة الراين بنفس الثقة التى يلقاها فى بلاد القرم وفى أسواق السنجال (Cingal) وتحددت معايير اللغة بأن سادت اللاتينية فى الغرب واليونانية فى الشرق ؛ واختفى اللسان الوطنى اختفاء تاما فى كثير من الأصقاع . وكانت النظم المشتركة

---

(١) وكان يدير هذه السفن رعايا من الرومان فيما يعتقد من شهدهم من الهنود ، ولكن من المحتمل أنهم كانوا سوريين أو مصريين جنسا .

(٢) الجوالق : هى الزكيبة والغرارة كما ورد فى المعاجم (المترجم)

التى تعيش فى ظلها شعوب الإمبراطورية مصدر رابطة أخرى لوحدة تلك الشعوب ، وذلك لأن الحكم بالأقاليم المختلفة ، وإن كان يتكيف طبق الظروف المحلية ، كان نظاماً واحداً فى جوهره يدار من مركز الدولة ، وهو فوق ذلك نظام ينزع إلى تزايد الاتساق بين الأجزاء وإزالة التخالف . وآية ذلك أنه بمقتضى مرسوم كراكلا الصادر فى ٢١٢ ، صار غالبية رعايا الإمبراطور مواطنين رومانيين ، واختفى من الوجود « الوضع المنحط » لساكن الإقليم . وعلى الرغم من أن النظام الإدارى بإيطاليا نفسها ، احتفظ لها طويلا بامتيازات خاصة فيما يتعلق بالضرائب ، فإنه سوِّى فى النهاية بنظام الأقاليم ، كما أن اعتزازها بمنزلتها فى الغرب — وقد تحدته كل من بلاد الغالة وإفريقية وأسبانيا فى ميادين الأدب والتجارة — لقى من هذا الإذلال عناء أشد وأكبر . وما نسوق هذين الأمرين إلا ليكونا مثالين لتطور أبعد أثراً وأوسع مجالا . ولما تزايدت الأخطار المحدقة بالإمبراطورية عمد رجال السياسة والتدبير فيها إلى مضاعفة جهودهم للمحافظة على الصرح المترنح بتحويله إلى بنيان متجانس ، وشد بعضه إلى بعض «بمنطق» حديدى ، قوامه القوانين والشرائع الجائرة ، غير مبالين بما اتخذوه من صرامة مسرفة ولا بقمع جهود الأحياء وما يثيره ذلك من رد فعل مضاد ، ولم يحفلوا إلا بإقامة كتلة متماسكة متينة غير متمايزة من المادة الصلبة .

الشرق والغرب

ولم تكن الشدائد ولا الأخطار التى حاقت بالدولة فى عهدها الأخير هى التى خلقت مواطن الضعف والتجريح فى النظام الإمبراطورى ، بل كانت هى التى كشفت عن تلك المواطن . والحالات الاجتماعية والاقتصادية المصرية

المشابهة لما كان فى العالم العهيد كثيراً ما تضللنا ، وذلك لأنها تنزع إلى إسدال الغموض على نواحى حضارته التى هى أكثر بدائية . وقياساً على معايير زمننا الحاضر ، لا بد أن عدد سكان أوربا فى ذلك الزمان كان مفرط الصغر ؛ إذ إن عدد سكان الإمبراطورية الرومانية لم يتجاوز ربع أعداد السكان الذين ورثوا الأقطار التابعة لها . ولم يكن توزيع السكان متعادلا ، فالشطر الشرقى لم ترجح كفته فحسب فى كثافة سكانه بل أيضاً فى مستواه من الثروة والحضارة . ولم يكن بالغرب من المدن ، باستثناء روما وقرطاجة ما يعدل المدن الزاهرة ، بآسيا الصغرى وسورية ومصر والتى أربى سكان الكثير منها على مائة ألف نسمة . فالولاية الأخيرة (مصر) كانت على الرغم من صغر حجمها ، تضم ما يقارب سُبع سكان الإمبراطورية بأكملها ، كما أن الشطر الأكبر من موارد الإمبراطورية كانت تؤديه الأقطار المطلة على البحر المتوسط الشرقى . ومن الناحية الأخرى ، فالثابت قطعاً أن المجموع الكلى لسكان الإمبراطورية الرومانية ازداد قلة بعد ثلاثة قرون من قيامها . وكانت إيطاليا وبلاد اليونان أشد البلاد تعرضاً لنقص السكان ، كما أن مناطق مترامية من بلاد الغالة أصبحت خالية من الناس ، لما كابدته من الطاعون والحروب الأهلية . ولم يكن تأثير روما الحضارى على الغرب موزعاً توزيعاً متكافئاً . فإن الطرق الرومانية ، شأن الدروب الجانبية والطرق الرئيسية الشريانية التى تكون شبكة المواصلات ، كثيراً ما كانت تحصر بين خيوطها مناطق مترامية ، لا تكاد فيها لغة السكان وعرفهم وعاداتهم تتأثر بأى حال بلغة غزاتهم الفاتحين وعاداتهم . وأكثر ما اتضح ذلك فى إقليمى الشمال والغرب ، حيث تناثرت قبائل من الرعاة والزراع البدائيين الموزعين توزيعاً خفيفاً بين المستنقعات والغابات ، بصورة لا تفى بالمطلوب لبيت المال والاستغلال التجارى

على عكس منطقة البحر المتوسط التى اتسع بها نطاق الزراعة . يضاف إلى ذلك أن النفوذ الرومانى كان يزداد ضعفاً كلما اقترب من أطراف الإمبراطورية . ولا تنس أن معالم التخوم نفسها أخذت تنطمس ، وتشبع أمراء الألمان وراء الراين بالثقافة الرومانية ؛ وسمح لجماهير غفيرة من البرابرة بالسكنى فى الممتلكات الرومانية بشرق بلاد الغالة وفى الأقاليم الواقعة جنوبى الدانوب. بل لقد حدث فى عهد الإمبراطورية الرومانية الشرقية المعروفة بالبيزنطية أن بعض المواطنين الرومان كانوا يفضلون الإقامة ببلاط حاكم أجنبي على مواجهة المطالب المتزايدة لجابى الضرائب الإمبراطورى .

وفى الشرق نفسه ، حيث دأبت الممالك الهللينستية التى نشأت عن فتوح الإسكندر على أن تنشر فى كل مكان المثل العليا للحياة بالمدن الإغريقية مدة ثلاثة قرون قبل أن تصل إليه روما — ظلت التقاليد الوطنية كامنة تنتظر ساعة الخلاص لكى تنتفض وتجاهد . ولم يكن للإغريق سوى أقلية صغيرة بسورية ومصر ، حيث صارت لهم مكانتهم بفضل تفوقهم الثقافى ، لا العددى. غير أن الحضارات القديمة بتلك الأصقاع احتفظت بحيويتهـا وإن غمرتها إلى حين ثقافة يونان ، كما أن نمو الأدبين القبطى والسوريانى ، اللذين أنعشهما قيام الكنائس المسيحية التى أصبحت ترجمانا يعبر عن العواطف الانفصالية والمحلية ، قد غذّى شعوراً بالتباعد وعدم التجانس مع فاتحيهم الأجانب ، كما زاد فى حدة المعارضة المريرة لسياسة الإمبراطورية وضرائبها . وغنى عن البيان أن فقدان الدولة فى النهاية لهاتين الولايتين إنما يرجع لمثل هذه الأسباب الداخلية ، فإن الغزاة الفرس والمسلمين فى القرن السابع وجدوا عوناً كبيراً من هيئات معادية كثيرة فى هذين الصقعين ، أما آسيا الصغرى فلم يصطبغ

بالصبغة الهللينستية فيها سوى الحواشى المطلة على البحر . بيد أن المناطق الجبلية الداخلية التى كانت مستراداً لعصابات اللصوص والمنطقة الرئيسية لتجنيد الجند للجيش الرومانى فيما عقب ذلك من زمن ، لم تكن لها أية تقاليد ثقافية تستطيع أن تكون بؤرة يتجمع فيها التذمر ، ومن ثم استطاعت بيزنطة الاحتفاظ بقبضتها على شبه الجزيرة كله إلى عهد متأخر من العصور الوسطى[1] .

الإمبراطورية فى خطر

كشفت الضربات المتعاقبة التى تلقتها المنطقة المتحضرة بأوربا منذ نهاية القرن الأول عن مكامن الخطر على البنيان الإمبراطورى . وشهد عهد ماركوس أوريليوس (١٦١ — ١٨٠) انحسار الرغد المرفرف على الدولة ، وأعقب حكم بيت الأنطونيين قرن من الفوضى والاضطراب تضعضعت فيه قوة الحكومة المركزية ، حيث كانت السلطة سرعان ما تنتقل من إمبراطور قصير العهد إلى آخر ، تتولى تنصيبه أو عزله الفيالق الرومانية حسبما يمليه عليها جشعها أو تقلّب أهوائها . وظهر الحكم العسكرى الاستبدادى فقضى على آخر آثار « الحكم الثنائى » غير الواقعى الذى أقامه أوغسطس ، وتزايد نفوذ الجيوش مع ازدياد الحاجة إليها . ذلك لأن الحدود أخذت تتعرض لتهديد متزايد ؛ وأخذت القبائل الجرمانية الضاربة فى الشمال من الأراضى المنخفضة إلى وادى الدانوب تضغط على الحواجز القائمة فى سبيلها ، وكان للقراصنة السكسون فى بحر المانش ضريب هو لصوص البحر من القوط فى البحر الأسود وسواحل بحر إيجة الشمالية . ونشأ فى الشرق خطر جديد عندما حل

---

(١) انظر للمترجم كتاب : « الحضارة البيزنطية » تأليف ستيفن رانسيمان الذى صدر بمجموعة الألف كتاب ، فضلا عن « الحضارة الهللينستية » بنفس المجموعة » . (المترجم)

آل ساسان (٢٢٧) ذوو النزعة العدوانية محل البارثيين فى عرش فارس . وعندئذ أصبح خط الفرات بحاجة دائمة إلى التعزيزات والإمداد ، ومنذ تلك اللحظة كان لزاماً على الدولة الرومانية التى لم يعد يتوافر لديها العدد الكافى من الجند ، أن تعالج مشكلة الجبهة المزدوجة . وبعد انقضاء فترة دامت نحو ستة قرون ، جددت فارس محاولاتها لاسترداد سلطانهـا على غرب آسيا بعد أن قضى عليها زحف الإسكندر الأكبر المكلل بالنصر . وهنا ظهر من جديد ضريب الملك العظيم فى أيام ماراتون ، مدعياً أنه ند للحاكم العالمى الآخر نزيل روما . وحدث أكثر من مرة إبان القرن الثالث أن راكبة الفرس اجتاحوا سورية حتى أوشكوا بلوغ بحر إيجة ، فهددوا بذلك تجارة إقليم من أغنى الأقاليم . وبلغ الأمر ذروته فى حملة عام ٢٦٠ الفاجعة ، عندما أسر عاهل الفرس خصمه الإمبراطور فاليريان .

ومن المحتمل أن هيبة روما فى الشرق الأدنى لم تعد إليها قط بعد تلك الضربة . ولا بد أن ذلك الفوز الساسانى الذى جد الفرس فى تسجيله حفراً فى الصخر وتصويراً جصيا (Fresco)[1] على الجدران ، قد انتشر خبره انتشار النار فى الهشيم ، فى مدن ذلك العالم الذى امتدت فيه طرق القوافل من شرق البحر المتوسط إلى الخليج الفارسى ، الذى اجتمع فيه خليط عجيب من الترف العالى الباذخ والشظف الصحراوى الجامى ، والمصالح التجارية ومناسر اللصوص والتعصب الأعمى الشديد الأوار ، ما كان من أثره أن صيغت بعد ذلك بعدة قرون حياة النبي محمد وتشكل تقدم الإسلام . فما كان لروما من قوة عاتية ،

---

(١) انظر « التقرير عن حفائر دورا يوروبوس » الموسم الرابع (نيوهافن ١٩٣٣ ، ص ١٨٣ — ١٩٩ والحفر البارز الذى لا يزال مرئيا قرب نقشى رستم . أنظر اللوحة رقم ١

(١) صورة الإمبراطور فاليريان وهو يركع أمام ساپور الأول

وصفت طرق الصحراء بكتل الحجر ، وملأت حصون الواحات بالحاميات ، وواصلت بسط دائرة نفوذها أماماً على امتداد خطوط التجارة المجلوبة على ظهور الإبل من الهند والشرق الأقصى ، شغلت آنذاك فى حرب القوات الإيرانية التى صارت نداً لها ، ولم تعد تحافظ على نجومها التقليدية[١] إلا بمشقة بالغة متزايدة . ومن آيات ضعف روما أن ظهرت على الفجاءة دولة تدمر (Palmyra) التى لم تعمر طويلا ، والتى اعتمدت فى حياتها على تجارة القوافل والتى احتفظت باستقلالها المجيد والوجيز الأمد حتى تغلب أورليان على ملكتها زنوبيا[٢] (Zenobia) . وكانت ظاهرة مماثلة لهذه تجرى فى الغرب ، حيث نجحت ولايات الغالة التى خرجت على طاعة السلطة المركزية ، فى مقاومة الدولة الرومانية مدة تربو على عشر سنوات . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن إيطاليا نفسها تعرضت لغزو البرابرة ؛ وتشهد أسوار أورليان العظيمة التى لا تزال تحيط بروما ، مثلما تشهد أسوار المدن الإيطالية الأخرى المبنية فى ذلك الوقت ، بقرب تحول المدن المفتوحة فى العالم القديم إلى معاقل القرون الوسطى[٣] المحوطة بالخنادق والمحصنة بالأبراج .

وفى أثناء هذه السنوات بلغت الأزمة الاقتصادية فى الإمبراطورية ذروتها ،

---

(١) عن تاريخ حدود الفرات فيما أعقب ذلك من زمن ، انظر كتابنا هذا الفصل السادس .

(٢) وهى الشهيرة عند العرب باسم الزباء (المترجم)

(٣) إن المدن المسورة لم تكن بطبيعة الحال شيئاً جديدا ؛ ولكن الأمن الذى أتاحه « السلام الرومانى Fax Romana » وتطور المواصلات فى عهد الإمبراطورية الأولى قللت من الحاجة إلى التحصين وشجعت على انتشار الضواحى على امتداد الطرق الرئيسية . ولا بد أن التباين الواضح بين مظهر المدن القديمة ومظهر مدن القرون الوسطى بغرب أوربا كان لافتاً جداً للأنظار .

واتفق أن الحاجة إلى المعادن النفيسة اللازمة لدفع أعطيات الفيالق ، التى كانت سلطة الإمبراطور تعتمد على ولائها المشترى بالمال ، اجتمعت إلى نقص كارث فى خام الذهب والفضة وهبوط عاجل فى إيرادات الضرائب . والراجح أن الميزان التجارى فى أثناء القرنين الأولين للميلاد كان يجنح لصالح دول آسيا المصدرة . وإن بين أيدينا الآن من الدلائل الأكيدة (وإن كانت التقديرات الدقيقة غير متيسرة) مايشير إلى تسرب عملتى الذهب والفضة من الإمبراطورية الرومانية نحو الشرق . وربما كان ثمة عامل أخطر من هذا ، هو هبوط إنتاج المناجم الأوربية . فإن من الأمور الملحوظة فى ذلك الزمن فساد نظام العملة . فاختفى الذهب من التداول ، ولم تعد الفضة المعروفة فى الأيام الأولى إلا مجرد عملة نحاسية عليها طلاء رقيق من الفضة . وعلى الرغم من انخفاض قيمة العملة فقد احتفظت الأسعار بشىء من الثبات حتى عهد جالينوس (٢٥٣—٢٦٨)، وذلك بغض النظر عن ارتفاع ضخم ترتب على تخفيض قيمة السبيكة فى الدينار . وعندئذ بدأت فترة تضخم مالى مفرط . إذ حلقت أسعار الحنطة بمصر فى عهد أورليان حتى بلغت أرقاماً خيالية ، وتبعتها معدلات الأجور وإن كانت بدرجة أقل . وأغلقت المصارف أبوابها ، ولكنها أمرت بأن تعود إلى العمل؛ وباتت المضاربة فى العملة من الأمور المألوفة . وتأثرت التجارة مع الشرق تأثراً جدّيا ، وهى التى كانت تقوم على عملة ذهبية كاملة الوزن والنقاء ، ولم تنتعش بعد ذلك إلا فى عهد جستنيان ، على الرغم من أن تجارة البحر المتوسط ظلت تحتفظ بقدر كبير من قوتها السابقة .

دقلديانوس وقسطنطين

ومن أوائل الأعمال التى قام بها دقلديانوس فى أثناء اضطلاعه بإعادة تنظيم الإمبراطورية ، إعادة العملة الذهبية والفضية ، ولقى هذا الأمر من النجاح

مالم تصادفه محاولاته التالية لضبط أسعار المواد الغذائية بما أصدره من مراسيم. وهناك سؤال ربما كان من المستحيل تقديم الإجابة عنه : ـ وهو إلى أى حد يمكن القول بأن دقلديانوس أوقف تيار تحول الاقتصـــاد النقدى المعروف فى الإمبراطورية الأولى ، إلى الاقتصاد « الطبيعى Natural » الذى اشتهرت به العصور الوسطى[1] . وقد استمر الجيش وموظفو الخدمة المدنيـة يتلقون أعطيات هزيلة ، ولـكنهم كانوا يعولون أنفسهم إلى حد كبير من مصادر أخرى ـ هى حصولهم على الإقامة والجراية ، كما أن النقل وخدمات أخرى غيره كانت مما يفرضه الجند على الناس ، كما كان الموظفون يحتمون على الناس دفع الأتعاب والحلوان وتسهيلات السفر والإقامة المجانية . ومن العسير علينا أن نحدد تقديراً للقيمة النقدية لـكل هذه الأمور ، على أن ذلك النظام ظل معمولا به لعهدى دقلديانوس وقسطنطين ، ولم يكن الجهاز المـالى الذى ابتدعه هذان العاهلان ، فى جوهره إلا مجرد تسويغ قانونى لهذه التدابير شبه النظامية .

وعندى أنه ليس من الغض من قدر الخدمات الجليلة التى أسداها هذان الرجلان اللذان أنقذت أعمالهما الإمبراطورية ممـا أحدق بها من انحلال ، أن نرى أن إعادتهما تنظيم الدولة لم يكن فى حقيقته سوى قبول واقعى للموقف الفعلى الذى كانت تقفه البلاد ، لا ابتداعاً لنموذج جديد للحكومة . على حين أتم من سبقوهما من الحـكام التغييرات اللازمة للجيش؛ أما التفرقة الشديدة بين جيوش الحدود التى كانت تنحط على الدوام فتصبح قوات حراسة مرابطة (Militia) من فلاحين مستقرين ، وبين الجيوش النظامية المؤلفة من صفوة المقاتلة الأشداء ، فلم تـكن إلا اعترافاً بحاجات الزمان ومقتضياته . ذلك أن

---

(١) انظر التذييل ب

قوة ضاربة سريعة الحركة يمكن إنفاذها فى وقت قصير إلى أحد أقاليم الأطراف، تستطيع على الأقل أن تطرد المغيرين البرابرة الذين لم تستطع حاميات التخوم منعهم من الدخول إليها . ومما يشهد بضعف الحكومة المركزية استقلال حكومات الولايات عن السلطة المركزية ، حيث أنشئت وحدات أصغر التماساً للكفاية ، على حين أن مركز الإمبراطور نفسه ـ وقد غَضَّ منه فى العهد الأخير الاعتماد على أهواء الكتائب ، ـ كان يرفع عالياً فوق كل مصلحة محلية لأى قطاع فى الدولة بازدياد مكانته شبه المقدسة ، التى سبق أن تكهن بها فعلا بعض من سلفوهما من الأباطرة ، كما أن التعبير عن ذلك التقديس ، بما كان يجرى عليه من مراسم محكمة بالبلاط ، ربما كان متأثراً بالمثال الفارسى الماثل فى بلاط كسرى . وحتى إنشاء القسطنطينية ذاته ، وهو أمر يسجل — والحق يقال — بداية حقبة جديدة ، يمكن من ناحية أخرى أن يعتبر بغاية البساطة مجرد اعتراف تام بحقيقة مقررة . هى أن مدينة روما لم تعد مركز الإمبراطورية .

الوثنية فى عهدها المتأخر

على أن هناك تجديداً مثيراً آخر قدر له أن يغير أساس الدولة الرومانية بأكمله ـ هو تحويل وضع المسيحية بفضل ما فعله قسطنطين ـ من ديانة محرمة إلى العقيدة المكرمة للبيت الإمبراطورى . وكانت سلخت من عمرها وقتذاك قروناً ثلاثة من النمو والتطور من نواحيها الاعتقادية (Dogma) والإدارية واتساع رقعتها الجغرافية . وبلغ عدد أنصارها بضعة ملايين ، كان ينتمى الجانب الأكبر منهم إلى الأماكن الشرقية ، وذلك فضلا عن أن ما أشرنا إليه آنفاً من نشاطات اليونان والسوريين فى أوربا الغربية أفضى إلى حمل التعاليم الجديدة

إلى المراكز التجارية بتلك الأصقاع . فالمجتمعات البدائية الأولى حل مكانها منذ أمد بعيد بدايات النظام الطبقى فى سلّم الوظائف الأكليروسى ، الذى اتخذ له جهاز الإدارة المدنية لحكومة الأقاليم مثالا يحتذيه ، وذلك على حين أن الأهمية السياسية والاقتصادية للحواضر العظيمة قيدت ، إلى حد ما ، السلطة التى يستمتع بها أساقفة روما وقرطاجة وأنطاكية وإفيسوس والإسكندرية. وقد بدأت المسيحية بين أدنى طبقات المجتمع مرتبة ، وكان الانتماء إليها لا يزال قاصراً على الأميين غير المتعلمين ، وإن أمكن وجود المسيحيين فى كل فئات المجتمع ، بل حتى فى دوائر القصر نفسها . على أن ثلاثة قرون من الاتصال بينها وبين عالم الإمبراطورية الرومانية القديمة أفضت إلى إحداث تعديل عميق فى الطرائق التى كانت تعبر بها عن نفسها ، كما أن القرن الرابع بما مر به من صروف التغير أدى إلى التعجيل بنتائج ذلك التفاعل . على أنه لا بد من الإدلاء ببعض بيانات ، مهما يكن عدم كفايتها ، عن الجو الذى كان يسود العالم فى عهد ثيودوسيوس الأكبر .

وفى إبان هذه القرون تغيرت روح الوثنية تغيراً تاماً . ذلك أن الولاء الحق لآلهة دول المدن القديمة ببلاد اليونان وروما توقف من زمن بعيد بين أفراد طبقة المفكرين من المجتمع ، ولكن عروش تلك الآلهة لم تظل شاغرة . فإن التشكك وإن كان بارزاً فى الأدب المسطر ، كانت تحل محله على توالى الأيام فكرة مخالفة عن الدين ، مؤسسة على الرغبة فى الاتصال الشخصى بالمعبود المقدس . وما أكثر الأشكال والتجمعات التى ظهرت فيها تحل الأسرار الخفية السائدة فى تراقيا ومصر وسوريا وآسيا الصغرى وفارس ، وتبناها العالم

الرومانى ، هذا إلى أن الرطازات[١] (Myths) الهلينية كانت (إن لم تنبذ) تنسج بطريقة ذات أسلوب خاص فى التكوين الجديد لهذه العقائد المركبة . وكانت الظروف السياسية تساعد على صهر العبادات المحلية فى التركيب الأكبر منها . بل حدث حتى فى البدايات السحيقة لدول المدن بأرض اليونان الأصلية، أن كثيراً من آلهة القرى ذوى شأنها حتى أصبح اسمها مجرد صفات تضاف إلى اسم زيوس أو أثينا ؛ وحدثت عملية مماثلة لهذه فى روما ، وإن عُوضت النزعة إلى الوحدة هنا بما كانت تظهره من استعداد لتقبل الآلهة الأجنبية فى پانثيونها[٢] المزدحم . وأفضى قيام الملوكيات الهلينستية الذى قضى على الحياة المشرقة للمجتمعات بدول المدن ، إلى تحويل أفكار الناس إلى دخيلة نفوسهم ، حيث شرع كل إنسان يبحث لنفسه عن سبيل إلى الخلاص الفردى، على حين أن الاستبداد الذى ران على الممالك الجديدة التى قامت على النسق الأسيوى ، عود العالم الناطق بالإغريقية على فكرة عبادة الحاكم ، وهى فكرة تغذوها وترعاها بكل عناية الأسر المالكة المتربعة فى العروش ، بوصف كونها أداة قوية تعتمد عليها الدولة . وجنت روما ثمار هذه الحال عندما أدخلت عبادة الإمبراطور ، كما أن المبدأ الرواقى القاضى بالاعتقاد « بالعناية Providence » البصيرة بكل شىء والمحسنة الخيّرة ، ربما عاد بالعون على أبناء الولايات المتواضعين فى إذكاء فكرتهم التى تصوروها عن الإمبراطور القادر على كل شىء ، الذى كانت عدالته تتصرف فى حياة ورفاهية الجموع الهائلة من السكان .

---

(١) الرطازات (Myths) هى القصص التقليدى العهيد عن الآلهة والأبطال ، وخاصة ما يقدمه العقل البدائى تفسيراً لاحدى الحقائق أو الظواهر . (المترجم)

(٢) البانثيون : معبد يجمع الآلهة جميعا . (المترجم)

ولم يعد نمو الفكر الفلسفى معادياً للمعتقدات الشعبية ، بل أصبح يعاون بقوة تيارات التوحيد المشوب[١] التى كانت تعمل نشطة فى المشاعر الدينية . وقد بدأ الأمر بوضع المسوغات العقلية للرطازات القديمة ، ثم استحداث رموز لها ، ثم لم تلبث الظواهر المشتركة بين مختلف الملل والنحل التى اعتبرت معالجات لقوة إلهية واحدة ، ـ حتى مزجت فى كتلة كالسديم حاول أفلوطين بتفكيره السليم أن يستخرج منها قاعدة منتظمة ، مستخدماً فى ذلك قوانين الاستدلال العقلى عند اليونانيين ، ومطبقاً إياها على مادة لا تتقبل مثل تلك المعالجة . على أن الأفلاطونية الحديثة كانت فى يديه منهاجاً للحياة لا مبدأ ونظرية . وحلت فى الأنفس نزعة تأملية محل النظرة الرواقية العملية ، وطريقتها فى التشديد على الخُلُق ، ومع أنه لا ينبغى إغفال عنصر التسويغ العقلى (Rationalizing) عند أفلوطين ، وهو افتراض الإغريق أن العالم ممكن الفهم ، لأن أدواره المتعاقبة إنما هى نتائج منطقية إحداها للأخرى ، فإن جوهر فكره إنما هو فهم تصوفى للحقيقة يكاد يكون حسياً ، أى أنه إدراك مباشر يتم دون تدخل من ملكة الاستدلال العقلى . ويتيسر هذا بفضل الوشائج الجوانية المتبادلة بين جميع ما فى العالم من أشخاص وأشياء ، والتى ترقد متوارية تحت سطح الظواهر ، وبهذه النظرية أيضاً يصبح تفسير الظواهر الطبيعية كالتخاطر (Telepathy) والفأل واقتران النجوم ممكنا . على أن صنع المعجزات والتطهر اتباعاً للطقوس والعرافة ليس إلا جزءاً يسيرا من فلسفة أفلوطين . وقد تحتم على خلفائه فى أثناء محاولاتهم تجميع قوى الوثنية كلها على العدو المشترك ، أن يدخلوا تلك الوسائل السحرية المساعدة ليتهيأ لهم اقتناص عواطف

---

(١) التوحيد المشوب (Henotheism) : هو الإيمان بإله واحد ولكن مع عدم انتفاء الإيمان بغيره . (المترجم)

الجماهير ، على حين أنهم التماساً للتقريب بين المفكرين راحوا يمزجون بغاية الأحوذية بين العقائد والمذاهب التى قامت فى العالم العهيد ابتداء من أفلاطون وأرسطوطاليس إلى الرواقيين والكلبيين . وهكذا يتضح أن علم الكون (Cosmology) التصوفى الذى اشتهرت به الفلسفة الأفلاطونية الحديثة وما حوى من فكرة عن الخلاص ، على صورته التى طورها إيامبليكوس (Iamblichus) ، يعتبر الشكل النهائى الذى اتخذته الوثنية المنظمة أداة فى أثناء كفاحها مع المسيحية[١] ، وينبغى ألا ينظر إلى الصراع على أنه معركة بين الإيمان والتشكك ، بل منافسة بين ديانتين غريمتين ذواتى خفايا وكل منهما تعبر عن زمانها[٢] . وبغض النظر عن الاعتقاديات (Dogma) لا تكاد تكون ثمة ناحية غير مشتركة عند كل من الوثنيين والمسيحيين : ـ الزهد والصوم والتهجد والتطهر والطقوس والقديسين والملائكة والشياطين والاعتماد على الرؤى والتكهنات باستفتاح الكتب[٣] (Sortes) . والفن الوثنى والمسيحى يستخدمان طريقة رمز واحدة ، حتى ليعسر التمييز بينهما ، إلا فى الحالات التى

---

(١) وهذا الوضع ينطبق بوجه رئيسى على الشرق ، حيث يتم مصطلح « الهللينستية Hellenism » الذى يطلقه المسيحيون على خصومهم ، على المحاولة الواعية وغير الناجحة ، لحشد تقاليد الثقافة الكلاسيكية دفاعا عن العقيدة القديمة . على حين أن مصطلح « الوثنية » وهى النظير اللاتينى للهللينستية فى الغرب يشير إلى وجود الشعائر القروية البدائية بشكل متناثر . ولقد كانت روما بما اجتمع لها من ذكريات تاريخية هى المكان الوحيد الذى صمدت فيه نحلة سياسية وأرستقراطية لعبادة الآلهة القدماء .

(٢) إن جوليان نصير الوثنية يهاجم الكلبيين الآخذين بالمذهب العقلى الذين يسخرون من الرطانات الكلاسيكية ، مهاجمة أكثر شدة ومرارة مما يهاجم أتباع المسيحية . أنظر ج . بيديه فى : « La Vie de l' Empereur Julien » (باريس ١٩٣٠) ص ص ٢٤٨ ع ع .

(٣) كان الأقدمون يستفتحون الكتب السماوية أو إلياذة هوميروس أو إنيادة فرجيل التماساً للفأل . (المترجم)

تستخدم فيها الموضوعات المسيحية البحتة ؛ وفضلا عن ذلك ، فإن النقاد العصريين يتجهون إلى تخفيض عدد هذه الحالات[١] التى يفترق فيها المسيحيون عن الوثنيين . إذ إن المسيحيين كانوا عندما هلّ القرن الرابع تقبلوا الدراسات والعلوم الوثنية وتشربوها ، وشاهد ذلك أن المنازعات التى دارت فى المجالس الكنسية الكبرى تدور حول أفكار أفلاطون وأرسطو التى كانت تلوّن أفكار الناس فى ذلك العصر وتعدّلها على نفس الشاكلة التى تريم بها نظريات النشوء والارتقاء وعلم النفس على العالم اليوم . ومما هو جدير بالذكر أن جوليان فى أثناء محاولته إعادة العبادات الوثنية الأولى كان يهدف إلى تأسيس نوع من هيئة دينية أو « كنيسة » تشبه المنظمة المسيحية من أوجه كثيرة ؛ فوضع لها مذهباً اعتقادياً مجدداً وأقام فيها سلّما للوظائف الكنسية ومجموعة من المستشفيات وبيوت الصدقات ومعونة الفقراء وسجلا بالكتب المحرمة[٢] على المؤمنين (Index Expurgatorius) .

ديانة القرن الرابع

والشاهد المقنع على قوة مركز المسيحية ، إخفاق جوليان فى تحقيق هدفه إزاء الرأى العام ومعارضته . ذلك أن الرطازات المسوّغة عقلياً والآلهة المندمجة بعضها فى بعض كان يعوزها التقبل الشعبي الحسن الذى تجده قصص الكتاب المقدس ، وهى شىء أقرب فى روحه وزمانه لعالم القرن الرابع . ذلك وإن ما فى الأفلاطونية الحديثة من نقاط دقيقة خفية ، وما يتصف به

---

(١) مثل رمز السمكة . انظر ف . ز . ج . دولجر فى (Ixoye) (مونستر ١٩١٠ — ١٩٣٢) .

(٢) انظر بيديه (Bidez) بالمصدر نفسه ص ٢٦٩ .

التقريب بين النحل عند الوثنية من ليونة وعدم تحديد وراحة نفسية ، كانا بمنزلة سواء ، من حيث ضعف قوتهما على إجبار القلوب على الإذعان . وكانت المسيحية فى توحيدها القاطع النافى لكل ما عداه تشارك اليهودية فى أنها مصدر قوىّ للاستقرار ، (على النقيض من سائر الديانات القديمة) . فهى عقيدة ليس فيها مكان لآلهة أخرى عدا ما يتوارى فى زى الشياطين الشريرة . وكانت مذاهب العقيدة تتشكل وتشتد صلابة على مدى الزمن ، يعززها فى ذلك امتلاكها لكتاب مقدس معتمد ، وهنا أيضاً حققت المسيحية لهذا الزمان حاجة كان يطلبها ، وذلك لأن من خصائص المراحل المتأخرة فى الفكر اليونانى الرومانى ، ازدياد اعتماده على سلطان الشواهد المعتمدة . وغير خاف أن عبقرية بلاد اليونان الأصيلة القادرة على الخلق والابتكار اختفت من زمن بعيد ، وأن الانتصارات التى أحرزها الرومان فى ميادين الأدب والفن والعمارة والهندسة بل حتى القانون ، كانت فى أغلب أمرها ثمرة التطبيق الذكى لمبادئ مكتشفة من قبل[1] . وكان الناس يحسون أن العصر الذهبى قد ولى . ومن الموضوعات المألوفة فى كتابات ذلك الزمان ازدياد الشغف بالماضى والشعور بالنقص فى الحاضر . فإن الإمبراطور قسطنطيوس طوى فى نفسه عند زيارته روما لأول مرة فى أخريات أيامه ، إعجابه بالسوق (الفوروم) التى أنشأها تراجان ؛ ولكنه رأى أنه ليس فى وسع الإنسان الفانى أن يطاول مثل هذا العمل العظيم ، وصرح

---

(١) انظر الحكم القاطع الذى أصدره بيورى حيث قال : « لم يبتكر رومان الامبراطورية شيئا . وليس من الغلو فى شىء أن نقول ، إن الصفة الغالبة على العالم الرومانى من عهد أوغسطس حتى سقوط أوغسطولوس ، الافتقار إلى الأفكار والعجز عن التفكير الجاد العميق ، وفرط التوقير للمراجع المعتمدة » .

بأنه ليس كفوا إلا لمحاكاة حصان تمثال تراجان (Trajan) الذى يمثله فى هيئة [١] الفارس .

وفوق هذا ، كان القرن الرابع عصراً يسيطر عليه « المجهول » . فإن خيوطاً خفية كانت تسلك كل شىء فى العالم مجموعات من التعاطف أو التنافر . فالشمس والقمر يمارسان سلطانهما على المخلوقات التابعة لمملكتيهما . ولصيحة الديك فى الصباح وشخوص عين الزهر إلى ضياء الشمس معناهما الخفى [٢] . والإنسان نفسه ، ذلك الكائن الذى يولد فى ظل اقتران النجوم ، والذى ترافقه مدى الحياة الروح الحارسة ، اتخذ وضعه فى عالم كل شىء فيه — حتى الجمادات — له صفات سحرية ، وقد يعود عليه أقل الأفعال أو الأحداث بالشؤم أو الثبور . ولم يأت على الإنسان حينٌ سمع فيه الصوت السماوى أكثر ولا أوضح منه فى هذا الزمان . وكانت الرؤى وتأويلاتها تزداد على الأيام بروزاً ، وأخذ عالم الأحلام يجتاح على الدوام ساعات يقظة الإنسان . واتخذ الفكر فى ذلك الزمن صبغة ذاتية قوية ؛ وازدادت قيمة ما انطوى عليه الإنسان من صراع داخلى وتجربة عاطفية ، بينما أخذ العالم الخارجى يختفى فى سحب الوهم والخيال . ولو أنك نظرت إلى العمل العظيم الذى ألفه القديس أوغسطين ، وهو عمل لا يمكن إيفاؤه حقه من تبيان أثره على الناس فى العصور الوسطى ، لوجدته يتصف بهذه الصفة الشبيهة بالأحلام . وإن الأسنة المشحوذة فى بيانه اللغوى الفاخر والمتناقض أيضاً فى كثير من الأحيان ، لتزود الجدليين فى مختلف المدارس بل حتى فى المدارس المتضادة بمستودع كامل للسلاح ، كما

---

(١) أميان فى ١٦ ، ١٠ ص ١٥ .

(٢) نلمس فى أعمال السحر بالعصور الوسطى آثاراً لكثير من هذه الوثنية المتأخرة .

أن مزاعم البابوية والإمبراطورية فى غرب أوربا والتى لم يتصورها خيال أوغسطين قط ، كانت تدور المناظرات فيها على أساس جدلياته. ولكن ينبغى لنا أن نفرق بين أوغسطين ابن القرن الرابع وبين البناء الجديد الذى شيدته على أساساته طاقات قادرة على التنظيم ظهرت فى القرون التالية . وإن أوغسطين ليقف وسط العالم القديم تحده حدود الإمبراطورية الرومانية ، ومع ذلك فهو يملك جميع موارد الثقافة الغربيـة . على أنه فى الحين نفسه يقف بمعزل من هذا العالم ، ملففاً فى حلمه الجميل بمدينة سماوية ليس من فيها من القطان إلا غرباء وحجاجاً على هذه الأرض . وكان هذان المظهران جميعا : وأعنى بذلك وحدة الحضارة الوثنية والمسيحية من ناحية ، والصدع العميق القائم بينهما من ناحية ثانية ، غريبين جميعاً عن العصور الوسطى ، يوم لم يعد خضوع الحضارة الوثنية والمسيحية السابق لأباطرة الرومان سوى ذكرى فى غرب أوربا[1] ، ويوم ذوى نهر الدراسات الكلاسيكية حتى أصبح مجرد بضعة جداول قليلة توجه بعناية إلى قنوات الكنيسة ورجالها . ولو نظرنا من زاوية ذلك العصر إلى كتاب « مدينة الله Civitas Dei » الذى وضعه أوغسطين لوجدناه تأكيداً حاراً للتدخل الإلهى فى الشئون البشرية ، أكثر منه « فلسفة للتاريخ » ؛ ووجدناه رؤيا وجدية أكثر منه صوغا تكهنياً للحدود القادمة مستقبلا للكنيسة والدولة ، ألفه متصوف فيلسوف تعالى عن الحقائق المحزنة التى يحتويها زمانه ، بما دبج من وصف لمجتمع مثالى ، يقوم على مبدأ العدالة الحقة ، فيلسوف لم يتطلع إلى عالم الحس بل إلى شرفات مدينة سرمدية لم تبنها يد[2] .

---

(١) إن الأثر العميق لتلك الذكرى معروف مشهور : ولكنه أثر يمارس فى عالم الفكر لا الحقائق .

(٢) انظر المقارنة التى عقدها المستشرق جرونيباوم فى كتاب « حضارة الاسلام » الذى صدر للمترجم بمجموعة الألف كتاب ، — بين القديس أوغسطين وبين الإمام الغزالى ص ٣٤٨ (المترجم)

وحدة الإمبراطورية

عند وفاة ثيودوسيوس ، قسمت الإمبراطورية بين ولديه ، أركاديوس وعمره ١٨ سنة وقد ورث الجزء الشرقى ، وهنوريوس وعمره ١١ سنة ونال الجزء الغربى . ولم يكن فى ذلك التقسيم شيء جديد . إذ كانت هناك دوما فروق معينة بين الولايات الغربية ، التى كانت ثقافتها وحياة المدن فيها مما أنشأته يد روما ، والمناطق الشرقية التى كانت لا تزال تحتفظ بالتقاليد الهللينستية. وقد كان تنظيم الإمبراطورية فى عهدى دقلديانوس وقسطنطين ، ذلك التنظيم الذى مهد السبيل لتولى إمبراطورين فى الإمبراطورية ، تهيأ له أن يستقر بوصفه التنظيم الطبيعى للأمور ، الذى استطاع أن يثبت على اضطرابات القرن الرابع[1] . ولذا كان أول ما قام به فالنتنيان من أعمال (٣٦٤) عندما تولى عرش الإمبراطورية ، أن عين فالنز إمبراطوراً شريكا . ومنذ تلك الساعة أخذ شطرا الإمبراطورية فى الافتراق السريع . ولم تتهيأ إلا فرص قليلة ، وعلى أزمنة متباعدة لقيام الشطرين بعمل موحد ؛ ولعل آخرها الحملة البحرية الكبرى التى سيرت فى ٤٦٨ على جزريك (Gaiseric) فاتح أفريقية الوندالى ، الذى كانت قرصنته تهـــدد تجارة البحر المتوسط بأكملها ؛ على أن هذه المحاولة القائمة على التعاون انتهت بالإخفاق التام .

ومع ذلك فمن الأمور الهامة أن يتذكر القارئ أن الإمبراطورية ظلت فى عين معاصريها ، وحدة واحدة غير قابلة للتقسيم . ومن الأمور الزائفة والغريبة عن فكرات ذلك الزمان التحدث عن « الإمبراطورية الشرقية

---

(١) انظر مايلى فى هذا الفصل بعنوان « الإمبراطور » . إذ عادت الإمبراطورية منذ عام ٤٨٠ فأصبحت من جديد تخضع لامبراطور واحد .

والإمبراطورية الغربيـة » ؛ ذلك أن الناس كانوا يفكرون فى شطرى الإمبراطورية باعتبار كونهما : «الجزئين الشرقى أو الغربى» (Partes orientis Veloccidentis) . ومن الأمور الشائعة قولهم إن « الإمبراطورية الغربية » سقطت فى ٤٧٦ عندما خلع أودواكر الإمبراطور رومولوس أوغسطولوس ، بيد أن ذلك القول ينطوى على غلطة مزدوجة . ذلك أن رومولوس كان مغتصباً للعرش . إذ إن الإمبراطور الشرعى للأجزاء الغربية الذى لجأ إلى دالماشيا قبل ذلك ببضع سنوات ، قد مات فى ٤٨٠ . وكان معنى ذلك من الناحية الدستورية أن زينون أصبح يحكم آنئذ الإمبراطورية كاملة غير مقسمة من بيزنطة . واعترف المتبربرون بمبدأ استمرار الإمبراطورية ذاك ، كما أن بعض زعمائهم كانوا يناصرون ذلك المبدأ مناصرة حقة (١) . ومن شواهد ذلك أيضاً ، أنه حدث بعد ٤٧٦ بزمن بعيد أن السنوات لم تزل تؤرخ باسمى القنصلين ، اللذين ينزل أحدهما بروما ويقطن الآخر القسطنطينية ، كما أن الدساتير الإمبراطورية لم تبرح تُعلَن باسم الإمبراطورين كليهما ، وإن كان الذى حدث بعد ٤٥٠ هو أن القوانين الغربية لم تعد تنشر فى الشرق . فإن الإمبراطورية كانت من الناحية النظرية دولة واحدة (Respublica) ، يعقد البرابرة معها المعاهدات ، على أننا نصادف مرتزقة البرابرة (Foederati) فى الشرق يقاتلون مرتزقة الغرب من البرابرة . وحدث ذات مرة أن استيليكو قائد هونوريوس اعتبرته القسطنطينية « عدواً للدولة » لأنه حاول أن يفصل إقليم (Prefecture)

---

(١) أمثال ألاريك وأتولف وثيودريك . انظر القوط الغربيون بالفصل الثانى وانظر مملكة ثيودريك بالفصل الثالث . ومن الحقائق البارزة طوال العصور المظلمة ، أن حكام بيزنطة ظلوا على الدوام يؤكدون إدعاءهم الحق فى ممارسة السيادة على ممتلكات روما بأوربا الغربية ؛ وأن مركز شرلمان لا يمكن أن يفهم دون الرجوع إلى ذلك الادعاء . بل إن مؤرخا بيزنطيا كتب فى القرن الثامن نفسه يقول إن فرنسا قسم من الأقسام الإدارية (Diocese) بالامبراطورية الرومانية .

إليريا (Illyricum) عن الشرق ويضمه إلى نصيب سيده . ولم يتردد الإمبراطور زينون فى شهر السيف على إيطاليا ، يوم استطاع بإرساله ثيودوريك لمهاجمة أودواكر ، أن يخلص تراقيا من شر قومه من القوط وأن يرحم الخزانة البيزنطية من النفقات الطائلة التى يدفعها لهم أعطيات .

ومنذ أن افتتح قسطنطين عاصمته الجديدة فى (٣٣٠) أخذت القسطنطينية تنمو على حساب روما . وكانت من الناحية التجارية أهم منها كثيراً ؛ ذلك أن مركز التجارة العالمية انتقل إلى شرق البحر المتوسط ، وظهر فى الأفق منافس قوى لأنطاكية والإسكندرية . وكانت عظمة الأساقفة تطابق إلى حد كبير عظمة مدنهم ؛ وبذا صار كرسى القسطنطينية الأسقفى الذى كان تابعاً أول الأمر لهرقلية مثار حسد المطارنة ، ثم صار آخر الأمر يفوق فى المكانة كرسى الإسكندرية وأنطاكية جميعا ، ولا يسبقه سوى كرسى القديس بطرس بروما ، وذلك لأن : « القسطنطينية هى روما الجديدة » . وكانت المدينة من الناحية السياسية مركز القيادة العليا لنظام عسكرى وإدارى عظيم . بل لقد كان لها مجلس شيوخ خاص ، وإليها كان يرد القمح من مصر ، وقد كان الحصول عليه امتيازا لروما فى أحد الأيام .

وفى أثناء المائة الأخيرة من السنين ، لم يدخل روما سوى أباطرة ثلاثة ، وهو أمر يتفجع عليه الشاعر كلوديانوس . ذلك أن روما أصبحت مدينة إقليمية . وظلت ميلانو التى تقع على مسافة دانية من الحدود الإيطالية ، مقراً للإمبراطور حتى انسحب منها هونوريوس خشية سطوة الأريك ، إلى مستنقعات رافنا ، التى أصبحت قصبة الحكم نيفا وقرنا من الزمان . وقد كانت غيبة الأباطرة سبباً فى أن روما صارت فى قبضة البابوات ، الذين شرعوا

آنذاك رويداً رويدا فى تنمية سلطانهم فى أثناء القرون الوسطى . كان البابوات يستطيعون فى الحين المناسب أن يتحدّوا الإمبراطور ، وأن يتفاوضوا مع المتبربرين ، وأن يرفعوا الرأس عاليا إزاء البقية الباقية من الأرستقراطية الرومانية التى يتزعمها والى (Prefect) المدينة رئيس جماعتهم ، بعكس بطاركة القسطنطينية الذين كانوا يعيشون فى ظل القصر . ولما أن سقطت روما أصيب العالم المتحضر بهزة شديدة ابتداء من أوغسطين فى هيبو إلى جيروم فى بيت لحم. ولكن الصدمة قد أصابت العواطف وحدها (وإن لم تكن رغم ذلك إلا صدمة حقيقية) . إذ إن روما كانت المدينة المقدسة : التى استودعت كلا من النظام القديم والعقيدة الجديدة ، ففيها كوخ روموليوس وقبر بطرس القديس . ولكنها لم تعد منذ زمن بعيد المركز الفعلى للإمبراطورية .

الحـــدود

وفى (٣٩٥) أصبحت الأقاليم الشمالية الغربيـة من الإمبراطورية على عتبات تغيرات هامة . ففى بريطانيا بات الدفاع عن « الشاطئ السكسونى » ، أى صفحة البحر المعرضة لهجمات السكسون فى بحر الشمال وعلى كل من جانبي بحر المانش، أهم مصدر لقلق رومانى أثناء القرن الرابع ؛ إذ يبدو أن مجموعة من القلاع امتدت قرب نهاية ذلك القرن على ساحل يوركشير . ولكن الجيوش الرومانية انسحبت فى (٤٠٢) لتسهم فى الدفاع عن إيطاليا . وفى (٤٠٧) عبر مرشح للعرش اسمه قسطنطين حدود بلاد الغالة بمعظم القوات الرومانية ، وهناك هزم هزيمة تامة ولقى مصرعه على يد قواد هونوريوس .ولم تعد الجنود إلى موطنها ، ثم انقضت مائة سنة لم يسمع فيها إلا القليل عن بريطانيا . ويشهد علم الآثار ولا سيما ما عثر عليه من النقود بمـا حدث من التخلى عن المواقع

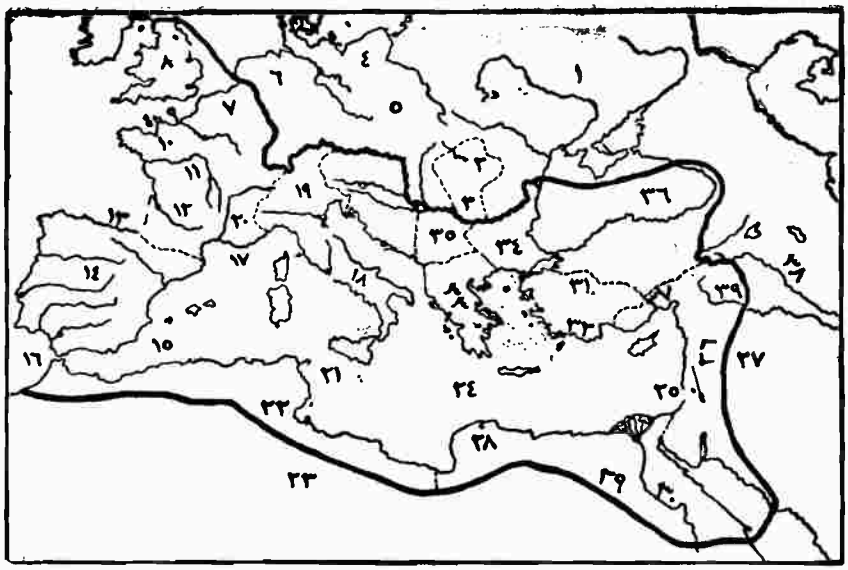

(٢) خريطة الإمبراطورية الرومانية فى القرن الرابع

١ — القوط الشرقيون	٢ — داكيا	٣ — القوط الغربيون
٤ — اللومبارد	٥ — الوندال	٦ — السكسون
٧ — الفرنجة	٨ — إقليم بريطانيا	٩ — نهر السين
١٠ — باريس	١١ — بلاد الغال	١٢ — بوانييه
١٣ — بوردو	١٤ — إقليم أسبانيا	١٥ — قرطاجنة
١٦ — أشبيلية	١٧ — مرسيليا	١٨ — إيطاليا
١٩ — ميلان	٢٠ — ارلس	٢١ — قرطاجة
٢٢ — إقليم إفريقية	٢٣ — الماوريون	٢٤ — البحر المتوسط
٢٥ — بيت المقدس	٢٦ — إقليم الشرق	٢٧ — العرب
٢٨ — برقة	٢٩ — إقليم مصر	٣٠ — نهر النيل
٣١ — آسيا	٣٢ — أزمير	٣٣ — مقدونيا
٣٤ — تراقيا	٣٥ — إقليم داكيا	٣٦ — إقليم بنطش
٣٧ — إيساوريا	٣٨ — الدجلة	٣٩ — نهر الفرات

الرومانية وبإحراق المدن ، وأخذ اسكتلنديو إيرلندة يلاحقون الساحل الغربى بالغارة والدمار ، وفى إحدى غاراتهم سبق باتريك أسيراً من مصب نهر السيفون فيما يرجح . واندفعت القبائل التيوتونية فى أودية الأنهار وعلى الطرق الرومانية شرقاً وجنوباً . ومنذ تلك اللحظة لم تعد تصل إلى العالم الرومانى عن بريطانيا سوى الشائعات والأساطير . إذ إن بروكوبيوس فى القرن التالى يعدها بلاداً تكاد تمتلئ بالثعابين ، وجزيرة أشباح لا يقطنها إلا الموتى، تنقل إليها الأرواح عبر البحر من بريتانى .

وكانت حدود الراين أيضاً على شفا الانهيار . وكان جوليان (يوليانوس) أعاد إليها النظام فى (٣٥٧) بسلسلة من الحملات الباهرة على الفرنجة والألامان المهاجمين ، وواصل فالنتنيان الكفاح ونصّب البورجنديين الوافدين حديثاً لمقاتلة الألامان ، وتمكن استيليكو فى (٣٩٥) من توكيد الدفاع عن بلاد الغالة ، فضلا عن بريطانيا ـ مدة عشر سنوات أخرى . ولكن النواحى الشرقية اصطبغت بصباغ جرمانى ثقيل . فقامت مستوطنات لأقوام من التيوتون على جانبى الراين ، وكان الدفاع عن تلك المنطقة موكلا إلى الجند المرتزقة أو الفرق المساعدة (Foederati) وهم القبائل المتبربرة الذين كانوا يظهرون فى كل يوم استعداداً لقتال أبناء قرابتهم أو منافسيهم لقاء أعطيات الرومان أو ما يقطعهم الرومان من أرض ، ثم ينضمون فى اليوم التالى إلى أعدائهم بالأمس ، أملا فى ابتزاز السلب ، أو الحصول من الإمبراطورية على شروط أفضل . وعندما استدعى معظم حرس الحدود للدفاع عن إيطاليا من الأريك ، استطاعت قبائل بأكملها عبور النهر وقد تجمد ماؤه فى ليل بهيم ، وأن تدخل الأراضى الرومانية دون التعرض لشىء من العقاب . وعلى هذا النحو عبر الراين حشد

مختلط من الواندال والسويف والألان حوالى (٤٠٦) ، فقضوا على مقاومة الفرنجة ، وشرعوا يجوبون فى أرجاء بلاد الغالة ردحاً من الزمان ، وهم ينهبون معظم المدن ويتسببون فى الفوضى والمجاعة ، حتى تمكنوا فى النهاية فى (٤٠٨) من عبور جبال البرانس ، واستقروا بأسبانيا ، محدثين بها نتائج مماثلة للتى أحدثوها بغيرها وإن كانت هنا أدْوَم . ومن الجلى أن قبضة الإمبراطورية على ممتلكاتها وراء جبال الألب أخذت تهن وتتقلقل . فإن شئنا سوق دليل آخر صح أن نلتمسه فيما فعله قسطنطين المغتصب القادم من بريطانيا ، إذ تمكن من أن يطلق على نفسه اسم سيد بلاد الغالة مدة أربع سنوات ، لمجرد تجنبه لقاء البرابرة المتجولين . وإن حملات قسطنطين وغيره من زعماء الرومان على قواد هونوريوس لتتسم بجو من الزيف واللاحقيقة عندما نتبين أنه فيما عدا ولاية بروفانس والركن الشمالى الشرقى من أسبانيا ، كانت هذه الولايات تنتقل فعلا واسماً إلى قبضة البرابرة .

ومع ذلك فإن هذه الحقائق لم تتضح فى (٣٩٥)[1] ؛ إذ إن الضغط الرئيسى كان مركزاً فيما يبدو على منطقة الدانوب . إذ حدث فى (٣٧٦) أن القوط وقد دفعهم إلى الأمام غزو الهون ، تدفقوا على الحدود ، وعاثوا فساداً بمقدونيا ، وتمكنوا فى (٣٧٨) فى معركة أدرنة الكارثة من إنزال الهزيمة بجيش رومانى وقتل الإمبراطور . ومن الجلى أنهم قد وصلوا فى زحفهم هذا إلى أسوار القسطنطينية نفسها ، ومع أن ثيودوسيوس تمكن من الاتفاق معهم ، فإنهم ظلوا يهددون العاصمة . إذ إن أعداداً غفيرة منهم كانت

---

(١) إن كلوديانوس وهو شاعر معاصر يثنى بثقة تامة بما أحرزه استيليكو والجيوش الرومانية ببريطانيا وغالة من انتصارات باهرة ، مقارنا إياها بما أنزله ماريوس بقبائل الكيمبرى والتيوتون من هزائم ولكن لايغرب عن البال أنه كان شاعر القصر وداعية ماهراً ذكيا .

تعمل فى الجيش الرومانى ، بينما نزلت جموع المحالفين منهم بداخل الإمبراطورية بوصفهم وحدات وطنية تطالب بإعانات ضخمة .

ولكن القسطنطينية نجت من الهلكة . ولم يكن ذلك إلا لشىء واحد كما سنرى بعد : هو أن القوط حولوا وجهتهم نحو الغرب ؛ ولسبب آخر هو أن الحدود الشرقية خيم عليها الهدوء طوال القرن الخامس بأكمله . وقد اقتسمت أرمينية فى (٣٨٧) بعد أن ظلت « دولة حاجزة » بين روما وفارس منذ عهد أوغسطس ، فانتهى بذلك النزاع الطويل على اكتساب « مناطق النفوذ » ـ وإلى أبعد من ذلك جنوبا ، أى بأرض الفرات ، ظل خطر الدفاع هادئاً لا يكدره مكدر ، وذلك لما أحدق بفارس من تهديد أعداء أخر بمنطقة نهر آمودار يا : كما أن سلسلة القلاع الرومانية كانت كافية لردع شراذم الأعراب المتجولة بتلك المنطقة .

وحافظت الدولة فى إفريقية أيضاً على حدود الصحراء من البدو المغيرين ، على الرغم من تضاؤل كفايتها ؛ وشاهد ذلك أن سينيزيوس (Synesius) أسقف برقة (Cyrene) وجد القوات النظامية أجبن من الجند المحلية التى كان يجمعها من جيرانه ويقودها بنفسه . فإذا انتقلنا إلى الغرب ، وجدنا السكان المغاربة والبونيين[1] قد اغتنموا فرصة الاضطرابات[2] الاجتماعية والدينية للتخلص من نفوذ الرومان .

---

(١) المغاربة (Moors) والبونيون : هم الفنيقيون وأحفادهم النازلون بشمال إفريقية (المترجم)

(٢) انظر ص ٢٧ الفصل نفسه بعنوان الهون ومتاعبهم .

الجيش

وكان الجيش فى قريب من ٤٠٠ للميلاد مرآة تعكس الأحوال العامة التى تشيع فى الإمبراطورية . فقد كان معروفاً رسمياً أن البنيان الأساسى لإصلاحات دقلديانوس وقسطنطين كان لا يزال قائماً . وكان الغرض من هذه الإصلاحات هو أولا ـ تشجيع الكفاية بفصل السلطة العسكرية عن السلطة المدنية ، وثانياً المحافظة على الحدود بإقامة خط متصل من المعسكرات ، على حين أن زهرة الجيش (بغض النظر عن فرق الجند الإقليميين على اختلاف أنواعهم) كانت تؤلف قوة متحركة تستطيع أن تبادر بالتحرك إلى أية نقطة تتعرض للغزو[1] . وتزايد إبان القرن الرابع الفرق فى النوع بين جيش الميدان (Comitatenses) وقوات الحدود أو الثغور (Limitanei) ؛ فإن الأخيرين ، وكانوا موزعين على معسكرات دائمة أو مستوطنات صغيرة ، ألحقت بها بعض الأرض الزراعية ، ما لبثوا أن أصبحوا تقريباً جند رديف من الفلاحين : وكثيراً ماكانوا أقواماً أشبه بالبرابرة بسبب تزاوجهم المختلط بالأجانب والتسرب المستمر بين الناس على امتداد مناطق الحدود ؛ ولا يختلفون كثيراً عن سكان المستوطنات التامة البربرية (Lacti or Gentiles) الذين سمح لهم بالاستقرار فى نواح مختلفة داخل الإمبراطورية ، مقابل قدر معلوم يؤدونه من الخدمة العسكرية . وكانوا ، على أحسن الأوضاع ، يعدون جنداً من الدرجة الثانية ، ونقيضاً غير كريم للجند النظاميين .

وتبين قوائم الجيش زيادة كبيرة فى عدد الكتائب ؛ ولكننا نستنتج

---

(١) انظر التذييل ا

نقلا عن مصادر أخرى أن الكثير من هذه الكتائب لم تكن موجودة إلا على الورق فقط ، أو كانت مجرد فصائل من نفس الكتيبة . إذ الواقع أنه فى تلك الأيام صار العدد المألوف للوحدة الفعالة ألف رجل لا ستة آلاف . ولم يعد يقودها آنئذ وال (Prefect) بل تريبيون . وكثيراً ما كانت تستخدم وحدات أصغر من أنواع مختلفة هى الفصائل (Nu meri) تتكون من حوالى خمسمائة رجل . ويبدو أن الأعداد الفعلية لقوات الميدان الرومانية فى أثناء القرن الخامس كانت بالغة القلة ، وكانت تزاد عادة باستئجار الحلفاء المتبربرين ، وهم قوم لا يعتمد عليهم فى الغالب كما أنهم يتقاضون دائماً أجوراً باهظة .

غلبة البرابرة على الجيش

وبلغ من تغير الجندى الرومانى فى ذلك الزمان أن زميله من جند الإمبراطورية الأولى لم يكن ليستطيع تمييزه كجندى ، إذ لم يكن يرتدى الزرد سوى الخيالة وقلة من المشاة . وحل محل الترس المثلث القديم ، درق مستدير مجوف ، غالباً ما كان يحمل شارة الفرقة . وكان السيف القصير (Gladius) المستخدم فى الطعن لا يزال يستخدم ، ولكن النصل العريض (Spatha) الطويل ، وهو من أسلحة البرابرة ، أخذ يحل محله . وندر الآن حمل حربة الرمى الثقيلة (البيلم Pilum) فلم تعد تستخدم إلا عند الجند البرابرة . وكانت دبابيس[1] (Pikes) القرون الوسطى آخذة فى الشيوع ، وأصبح جميع الراكبة فى القرن التالى يحملون المزاريق . ونقل القوس عن البارثيين ، ولم ينقض طويل زمن حتى صار سلاحاً للفارس والراجل على السواء . وحدث

---

(١) الدبوس آلة حربية تشبه الحربة طويلة القناة مدببة الطرفين . (المترجم)

تقدم فعلى فى الخيالة فى أثناء القرن الرابع : إذ أظهرت أهميتها (أى الخيالة) كارثة أدرنة ، وظهرت الفرسان المدرعة للقرون الوسطى فى صورة الخيالة الثقيلة (Cataphractarii) لأول مرة ، وما لبثت منذ تلك اللحظة حتى صارت القوة الفاصلة فى المعارك . وتسرب إلى الجيش كثير من الكلمات والعادات الألمانية فإنا نسمع اسم الدرانجوس (Drungus) ، وهو نوع من تشكيلات الجيش ؛ على حين أن صيحة الباريتوس (Barritus) وهى صيحة حرب كانت تبدأ بهمهمة خافتة وتنتهى بزئير رهيب ، قد انتقلت آنئذ من الجند المساعدة (Auxilia) الألمانية إلى صفوف الجيش بأكملها .

ومما يلفت النظر إلى المظهر غير الرومانى الذى اتسمت به القوات الإمبراطورية فى تلك الفترة ، ـ عَلَم الكتائب الجديدة المنقول فيما يرجح عن كتائب الفرقة الرومانية الكاملة القديمة ، التى تكاد الكتائب الجديدة تضارعها فى العدد . وكان العلم على هيئة أفعوان (Draco) ـ وهو شارة لعلها اقتبست عن الداكيين (Dacians) ، وهو مخلوق ضخم بربرى الشكل يمتلىء بالهواء ويثبت على رأس رمح .

وهذه الشارات البربرية ليست إلا أعراضاً لتغير بالغ العمق . فإن الجندى الرومانى كان يحارب آنذاك على قدم المساواة مع الهمجى المتبربر . وكان فى الأيام السالفة يقل عن المتبربر عدداً وقوة احتمال ؛ ولكن كانت له وقتذاك الغلبة على المتبربر بفضل تدريبه ونظامه الكامل وتفوقه فى السلاح ووسائل المواصلات . فأما الآن فإن ذلك كله قد ذهب . إذ إن التكتيك المعقد لم يعد فى مكنة الرومان ؛ بل إن المعسكرات العظيمة التى كان الفيلق الرومانى يقيمها كل ليلة ـ وبها كان يزيد روحه المعنوية قوة وحركته سرعة ـ لم تعد مألوفة

فى ذلك الحين . وكان كثير من البرابرة مزودين بسلاح أفضل ، بل لقد خدم بعضهم فى القوات الرومانية فترة من الزمن . هذا إلى أن الجهاز الإمبراطورى كان يتداعى . وكانت إدارة المهمات الحربية مقلقلة الأسس ، والأعطيات مضطربة ، وكان الجو مفعما بالاضطراب وسوء النظام .

وهناك نتيجة ترتبت على ذلك ، هى نمو عدد الأتباع الشخصيين ؛ وأصبح القانون ألعوبة فى يد كبار الملاك يتناولونه بالعبث كيف يشاءون ، وصاروا يدفعون الأجور لأتباعهم ويسلحونهم ويطعمونهم . ونمت تلك العادة متأثرة فيما يحتمل بنظام حراس الأمراء أو الأتباع (Comitatus) الألمانى الذى يصفه تاكيتوس[١] . لم يلبث نظام الأتباع أن أصبح معترفاً به فى عهد جستنيان ، يوم أصبح جميع القواد ، بل حتى الموظفين المدنيين والأفراد العاديين يتخذون من البقلار أتباعاً لهم (Buccellarii)[٢] . وبلغ عددهم عند بليساريوس (Belisarius) مثلا ٧٠٠٠ رجل ، ولكن كانت تلك حالة استثنائية . إذ لم يكن لدى نارسيس (Narses) سوى أربعمائة .

كانت الكتائب الرومانية مكونة فى الأصل من الإيطاليين ؛ ثم استدعت الحال فيما بعد اللجوء إلى أبناء الأقاليم ، حتى ترامى الأمر إلى أن أصبحت أقل أجزاء الإمبراطورية مدنية مثل بلاد الغالة وإليريا وإيسوريا

---

(١) انظر مرالفصل الثانى فى عنوان ألمانيا الباكرة وتاكيتوس : (٥٥ ؟ — ١٢٠ ؟) مؤرخ رومانى ذائع الصيت [المترجم] .

(٢) يظهر أن كلمة البوقلار أو البوكلارية مشتقة من لفظة Buccella ، وهو ضرب من البسكويت ؛ ولعل ذلك يرجع إلى أنهم كانوا يحصلون على طعام أفضل من الوجبات الخشنة التى كان يعطاها الجند العاديون .

(Isauria) —مناطق التجنيد الرئيسية فى الدولة . أجل إن التجنيد الإجبارى كان لا يزال موجوداً فى الإمبراطورية — إذ كان يتحتم على الملاك تقديم عدد معين من الرجال ؛ ولكن نظراً لأنهم كانوا يرسلون أقل الرجال صلاحية أو يستعيضون عن رجالهم بما يؤدونه من الأموال ، فإن هذا الإجراء كاد يبطل . وعندئذ صارت المادة التى يأتلف منها الجيش مكونة من أسرى المتبربرين والقبائل التى خضعت بشروط ، والشعوب التى أنزلت على الحدود أو بالقرب منها أو الجند المتبربرين المتحالفين (Foed erati) الأحرار وما إلى ذلك . وكلما كان الرجل متبربراً أكثر ، كان جندياً أفضل . وبلغت الأمور نقطة التحول عند نهاية القرن الرابع . إذ سمح ثيودوسيوس بأن يدخل البلاد عدد جارف من القوط ، فلم يعد من الممكن بعد ذلك أن ينالوا أى نصيب من العلم — بالطرائق الرومانية ، ولو كان ذلك عن طريق توزيعهم بين مختلف الوحدات .

أما القيادات العليا ، فقد تولى الجرمان نصفها على الأقل منذ عهد جوليان ، فضلا عن أن كثيراً من الباقين كانوا من أرومة بربرية . وكان القوم على الدوام يستخدمون اللغة الدارجة لملاءمتها لحقائق الموقف . فكانت الخزانة العسكرية تسمى بالخزانة البربرية (Fiscus baricus) . ومما له دلالته ومغزاه أن أما مصرية تذكر فى التماسها تسريح ولدها أنه «انطلق مع البرابرة» وهى تعنى بذلك أنه قد انخرط فى الكتائب الرومانية .

الإمبراطور

إن مركز الإمبراطور فى ذلك الأوان كان — بمعنى ما — النتيجة المنطقية لما عمله أو غسطس . فإن ما يسمونه باسم «الحكم الثنائى Diarchy» أو اقتسام سلطة السيادة العليا بين الإمبراطور (Princeps) ومجلس الشيوخ،

كان منذ البداية أقصوصة إلى حد كبير ، وصرف عنه النظر قبل عهد دقلديانوس ، ومنذ تلك اللحظة أصبح الإمبراطور هو المتحكم فى كل المجالات، وبذا يمكن القول بأن حكومة الإمبراطورية كانت حتى سقوطها فى ١٤٥٣ حكومة استبدادية مطلقة (أوتوقراطية) . ولكنها مع ذلك كما قال مومسن[١] : « حكومة مطلقة يلطف من عنفوانها الحق المشروع فى الثورة ». وكان الإمبراطور يخشى على الدوام ظهور منافس له . وبناء على النظرية الأصلية التى رسمها أوغسطس ، كان مجلس الشيوخ والشعب ينتخبان الإمبراطور ويوليانه مهام منصبه . ثم تعدل هذا الوضع عملياً بمناداة السناتو والجيش بالإمبراطور ، وإن بقى المبدأ الأصلى قائماً فى بيزنطة على صورة احتفال يقام بحلبة السباق (Hippodrome) على أعين العالم كافة . وإن استطاع منافس أن ينصبه جزء من الجيش إمبراطوراً ، صار له « وضع دستورى فرضى ، إما أن يثبته الاحتفال وإما أن يلغيه » (فيما يقول بيورى) ، فإن أخفق فيما قام به من انقلاب (Coupd' etat) عُدّ ثائراً متمرداً . وإن نجح كان الإمبراطور الشرعى .

بيد أن هذا لم يكن الإجراء العادى الذى يتم عند وفاة أحد الأباطرة . إذ كان لكل واحد من هؤلاء الحكام شريك يصغره موجود عند موته ، وفى تلك الحالة لم يكن هناك أى انتخاب . وهذا المبدأ الذى عملت به الأسر المالكة والذى تجلى ظاهراً فى سياسة أوغسطس ، أصبح عرفاً معترفاً به :

---

(١) هو تيودور مومسن (Mommsen) (١٨١٧ — ١٩٠٣) : وهو عالم ألمانى بالعلوم الكلاسيكية ، بحث بإيطاليا فى النقوش الرومانية . وتولى أستاذية التاريخ القديم بجامعة برلين منذ (١٨٥٧) وله عدة مؤلفات عظيمة . [المترجم]

إذا كان للإمبراطور « الحق فى نقل المنصب الإمبراطورى إلى الغير » . وعندئذ يكون شريكه أو شركاؤه خاضعين له ، وليس للإمبراطورية إلا حاكم أعلى واحد فقط . (وعلى هذا الاعتبار ، تكون المدة من دقلديانوس إلى يوليوس نيبوس (المتوفى ٤٨٠) حالة استثنائية)[1] . وهكذا بقيت ولاية العرش الانتخابية قائمة على الدوام من حيث المبدأ ، ولم يكن السناتو يلعب فى ذلك دوراً هاماً إلا فى حالات استثنائية فقط .

وثمة قيود أخرى كانت مفروضة على سلطة الإمبراطور . فعلى الرغم من أن الإمبراطور كان من الناحية النظرية فوق القانون ، إلا أنه كان عليه التزام غير مكتوب بأن يحافظ على الأنظمة والقوانين الرومانية . وينبغى أن يكون مسيحياً أرثوذكسيا : وقد تم انتزاع هذا الالتزام حينما تولى العرش الإمبراطور ناستوسيوس (٤٩١) ، وكان معروفاً بآرائه الإلحادية ، ثم جرى العرف فيما عقب ذلك من أيام بأن يحلف الإمبراطور يميناً عند تتويجه . بيد أن الكنيسة لم تكن تواصل على الدوام ادعاءها السيادة على الدولة ، كما حدث فى الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، ومن ثم لم تكن بيزنطة فى حاجة إلى أمثال دانتى أو أكام لصياغة النظريات المحكمة فى هذا الصدد ، إذ لم تكن الكنيسة هنا إلا إدارة من إدارات الدولة ؛ وكان الإمبراطور رأس الكنيسة ، وكان البطريرك وزيره فى الشئون الدينية ، والحاكم يلقى هنا سلطته من ربه مباشرة ، ومع أنه لم يكن يعبد شأنه فى العهود الوثنية ، إلا أن قصره ومخدعه أسبغت عليهما صفة القداسة فى المراسم الرسمية . وربما أمكن تلمس المؤثر الفارسى فى هذا الأمر؛ ومن المحقق أنه واضح فى تفاصيل مراسيمية

---

(١) انظر ص (١٤) .

أخرى . وكان التاج وهو شريط أبيض مطرز باللؤلؤ ، قد أصبح أهم شارات الملك شأنا ؛ كما كانت الأحذية الأرجوانية أيضاً جزءاً من ثياب الإمبراطور. وكان الخصيان والنساء يسيطرون على بلاط أركاديوس وهونوريوس . وكان كبير الأمناء واحدا من أبرز أربعة من الموظفين ذوى الأهمية ، وهو (Peaedositus Sacri Cubiculi) من الخصيان . وكان الإمبراطور يحاط بسياج من آداب اللياقة والمراسم (كان التعبير عنه يتطلب حشداً ضخماً من رجال البلاط والخدم) كما كان محوطاً بسياج يبعده عن كل اتصال بالحياة الواقعية .

ومن المفارقات العجيبة أن المركزية الإدارية بلغت فى الحين نفسه أقصى ذروتها . فكان الإمبراطور يمسك بيده خيوط الحكم جميعاً ؛ فهو المصدر الوحيد للقانون ، وفقهاؤه هم الذين يفسرونه ، كما أن مجلسه كان يتكون من رؤساء الإدارات الحكومية الكبرى فى الدولة ولم يعد فى الإمكان التفريق بين إيرادات الدولة ودخله الخاص : وكان الإمبراطور يستخدم هيئة ضخمة من العملاء الخصوصين (Curiosi or Agentsimrebus) وهم مكلفون بالبحث فى كل نقطة من نقاط الإدارة وتقديم التقارير إليه رأساً . وإن مجموعة قوانين ثيودوسيوس التى نحن مدينون لها بالشىء الكثير مما لدينا من معلومات عن ذلك العصر ، لتحفل بالأوامر الإمبراطورية التى يقصد بها إلى معالجة الظلم وإساءة التصرف . ومع ذلك فإن مجرد تكرار تلك الأوامر نفسه يدل على الفشل . والحق أن الجهاز الحكومى بلغ من الفخامة والتعقيد مبلغاً عطل نشاط كل فرد . وكان من المحال تغيير حركة أصغر ترس فى تلك الدواليب المتداخلة بعضها فى بعض . هذا إلى أن الجهاز نفسه كانت تتهدده قوى بالغة الضخامة ؛ إذ صار وقف زحف البرابرة على الدولة فى الاعتبار الأول . وكان رؤساء الجند

(Magistri militum) أصحاب النفوذ والسلطة الحقيقية فى أثناء ذلك القرن ، كما أن أى إمبراطور غير ميال للحرب لا مفر من أن يُجعل فى المرتبة الثانية بعد قائد الجيش .

الهيئة السناتورية

وقد انحدرت منزلة سناتو روما فأصبح مجلس بلدية ، يرأسه والى المدينة (Prefect) وهو المهيمن على الخزانة (Aerarium) ، التى لم تعد منذ زمن بعيد خزانة الدولة ، وأصبح الآن يشرف على سقايات الماء بالمدينة وتزويدها بالمؤن . وتجلى انحدار مكانة السناتو بعد انتقال البلاط الإمبراطورى إلى ميلانو أولا ثم إلى رافنا فى النهاية . فالهيئة التى كانت تدير شئون الإمبراطورية لم تعد تحفل إلا بالجامعة وبسجلات العاصمة . ومع ذلك فإنه لم يبرح من الناحية النظرية محتفظاً بسلطاته الأولى ، وربما أظهر فى أيام الأزمات أنه عامل حاسم فى الأمور . فأما بيزنطة ، فنظراً لشدة نزعتها المركزية ، لم يعد ثمة فارق بين السناتو ومجلس الإمبراطور (Consistorium) . وظلت الوظائف القديمة : وظائف القنصل والبرايتور (Praetor) موجودة لم تمحها يد الزمن ، وتعتبر أن أعلى المناصب التى يتطلع إليها نبلاء العاصمة أو الأقاليم . وعلى الرغم من أن أعباء هذين المنصبين لم تعد تتجاوز ما يعرض على السكان من الألعاب أو الحفلات .

وكان مجلس الشيوخ (Senatus) أو السناتو نفسه يضم نسبة ضئيلة جداً من رجال طبقة أعضاء السناتو (Ordo Senatorius) ، وهى الطبقة الكبيرة من الملاك الأغنياء الذين كان لهم بكل أرجاء الإمبراطورية سلطة ونفوذ عظيمان

رغم أن هذا النفوذ لم يكن إلى حد كبير يستند إلى صفة رسمية لهم ، فما لم يكن الرجل من هؤلاء منتسباً إلى تلك الطبقة بحكم مولده ، فإنه كان ينتظم فيها بأمر خاص من الإمبراطور أو السناتو ، أو حتى أصبح عضواً بإحدى طبقات الأشراف الثلاث : وهى الوجهاء ، والنابهون ، والصفـــوة النبلاء (Spectbilis, Illustris, Claris-imus) . وكان لـكل منصب رسمى هام فى الإمبراطورية لقب مرتبط به أو يصح الحصول عليه عند التقاعد . وكانت هذه الألقاب تتغير باستمرار ، وتزداد عددا على الدوام فى أثناء القرنين الرابع والخامس . ولم تـكن الألقاب ألقاب تـكريم وشرف وحسب ، بل كانت تسوغ لحاملها أنواعاً مختلفة من الإعفاء من الضرائب ، ومن ثم كانت موضع التقدير والاهتمام . وبهذه الطريقة كانت طبقات بأكملها من الموظفين تنتقل آلياً إلى عقد رجال السناتو . ومن العسير أن نصف بالتفصيل سلم الوظائف . على أنه كان يلى الطبقات الثلاث سالفة الذكر طبقة الأكامل (Perfectissimi) وهى طبقة تتألف من صغار الموظفين ومن رؤساء هيئات معينة ، وكانت فى كثير من الحين معراجاً يرقى به إلى طبقة السناتو . وفيما يلى هذه الطبقة ، انتظم السكان فى أقسام تقوم على الحرف والأعمال كما سنرى بعد .

وبعد حدوث الفوضى الجائحة التى رانت على القرن الثالث ، أصبح الاستقرار الشغل الشاغل والهدف المرموق ، وتم بلوغ ذلك بإقدام الحكومة بعزم قوى على توطيد النظام الإدارى وتبسيطه . وقد اشتد غلاء المواد الغذائية : فحاول دقلديانوس ضبطه بإصدار الأوامر بتنفيذ لائحة عامة لأعلى الأسعار ، وأدت المحاولة إلى تقديم كثير من الناس إلى المحاكمة ، ولـكنها لم تلق أى نجاح يذكر ، وخفضت قيمة العملة وأصبح الذهب والفضة نادرين ؛ وأدخل قسطنطين عملة الصولدى (Solidus) الذهبى ، التى لبثت عدة قرون العملة

المعيارية للدولة ، على الرغم من أن وحدة القيم الحقيقية هى وزن الرطل من الذهب . وكان أساس تقدير الضرائب إبان الإمبراطورية الأولى هو العرف السائد بمختلف النواحى ؛ وهو نظام شديد التعقيد ، إذ إن معظم الإيرادات كان يحصل من الضرائب غير المباشرة ومن إنتاج المزارع الإمبراطورية الكبرى . على أن أفدح الأعباء هو تلك الضرائب الاستثنائية التى كانت تفرض على الناس نقداً وعيناً لتزويد الجيوش الرومانية والموظفين المسافرين بالميرة ووسائل النقل . وتزايدت هذه الفرائض المحتمة زيادة هائلة فى أثناء اضطرابات القرن الثالث يوم كاد كل إقليم يقيم لنفسه إمبراطوراً أو مدعياً للعرش ، وكادت التجارة المنتظمة تكون مستحيلة . ولكن دقلديانوس بدلا من أن يعود إلى النظام القديم قرر أن يواصل العمل بهذه الإجراءات ، وذلك فى ضريبة الميرة (Annona) ، كما قرر أن يستعيض عن نظام التقدير القديم بطريقة بالغة البساطة والسذاجة فى الحساب وهى طريقة الربط (Iugatio) ، وهى طريقة لا تحفل إلا قليلا بالخصائص[1] المحلية . إذ لا بد من إنقاذ الإمبراطورية على حساب شعبها . ولم يكن فى الإمكان إحراز هذا الإنقاذ إلا بتحويل الأمة كلها إلى آلة مقننة لإنتاج النقود وضروريات الحياة ، وذلك بقصد مواجهة النقص المتواصل فى الإيرادات والتجاوة وعدد السكان بل حتى فى الابتكار والمبادأة .

وكان الفلاحون قاعدة الدولة التى عليها تقوم . ومن ثم فقد وجب قهرهم ووجبت مع ذلك حمايتهم . ولم يعد معظم الفلاحين الصغار (Coloni) من الملاك ؛ إذ إنهم أصبحوا بحكم العقود أو التشريعات ـ من ناحية ، ولكن

---

(١) انظر التذييل ا

بالأكثر بحكم الحاجة الاقتصادية من ناحية أخرى تفوق الأولى ، ـ مستأجرين فى مزارع كبار الملاك . وقد انتقصت آنذاك حريتهم الشخصية ؛ فربطوا هم وأبناؤهم بالأرض ؛ وإن فكروا فى الفرار والإباق [1] وضعوا فى الأغلال . ولكن سادتهم (Patrohus) ينبغى ألا يسرفوا فى تجريدهم من غلة الأرض دون ترك فائض لهم بما يفرضونه عليهم من إيجار فاحش ؛ ولا يجوز لهم أن ينقلوا الفلاح الصغير إلى مكان آخر إذا باع السيد الأرض التى يعمل عليها الفلاح . ثم صار الملاك آخر الأمر مسئولين عن جمع الضرائب التى يدفعها مستأجروهم وبذلك تم إخضاع صغار الفلاحين . فإنهم أصبحوا عند ذاك يؤلفون طبقة من أشباه الأحرار ، تقع فى منتصف الطريق بين المواطنين الأحرار والأرقاء .

اضطراب شئون الزراعة

ومما يشهد بالحالة المؤسفة التى بلغها الكساد الزراعى ، ويدل على أهميته لدى الإمبراطورية ، الإجراءات المتنوعة التى لجأت إليها الحكومة لتمنع الناس من التخلى عن زراعة الأرض ، فتقرر فرض إيجار اسمىّ على حيازة الأرض البور الموروثة التى يتعهد حائزها بزراعتها زيتوناً وكرما (Emphyteusis) وهذا النوع من الحيازة هو المعروف بأرض الطعمة . وتحتم على مالكى المزارع الضخمة أن يضيفو إلى أملاكهم قدراً معلوماً من الأرض غير المزروعة ويؤدوا عنها ضريبة (Epibolé) .وهناك عدد من البرديات التى اكتشفت حديثاً بمصر، توضح لنا وضوحاً لا لبس فيه المصاعب التى تنجم عن اتباع هذا النظام ،

---

(١) أبق العبد أبقا وإباقا : هرب (المترجم)

الذى استمر معمولا به إلى العصر البيزنطى ، فكل من ظهرت عليه أمارات اليسار جعلت على كاهله قطع من هـذه الأرض البور ، وأفضت المطالبات الرسمية المتواصلة بتقديم الإبل والأسلحة والقوارب والأرقاء ووسائل المواصلات الأخرى ، إلى القضاء على كل تجارة ، وتحول الآبقون إلى قطاع طرق ، وتركوا زملاءهم يؤدون الضرائب الفادحة ، وأخذت رمال الصحراء تطبق فعلا على حقول القمح وعرائس الكروم التى تركها أصحابها يباباً بلقعاً .

وقام الفلاحون بثورات فى أصقاع مختلفة . ففى غالة وأسبانيا أشبّت عصائب الثائرين(Bagaudae)حروباً متقطعة فى أثناء القرنين الرابع والخامس ، وكانوا فى أحوال عديدة يقدمون العون للبرابرة . إذ إن سالفيان وهو قسيس فى جنوب غالة وصف هؤلاء الثائرين ،ويتحدث أيضاً عن رجال فروا إلى البرابرة للتخلص من جابى الضرائب . وثار الأرقاء فى بعض المناطق على أسيادهم ؛ ويروى بريسكوس [1] الذى عاش فى منتصف القرن الخامس والذى أرسله الإمبراطور فى سفارة خاصة إلى أتيلا بمعسكره شمالى الدانوب ، أنه وجد تاجراً يونانياً يعيش بين ظهرانى الهون ، وأن التاجر أدلى إليه بأسباب مفصلة لإيثاره العيش فى ظل البربرية على خفض الحضارة . واشتد فى إفريقية بغض الفلاحين للدولة الذى كانت تزيد فى أواره المشاعر العنصرية المغربية والبونية (الفينيقية) ، ولم يلبث حتى ثار شرره ناراً ولهيباً نتيجة للانشقاق الدوناتى [2]

---

(١) بريسكوس (Priscus) عن تفاصيل رحلته الشائقة إلى معسكر أتيلا ، انظر للمترجم المجلد الثانى من « معالم تاريخ الإنسانية » تأليف هـ.ج ولز ص٦٥٢ ط ٢ لجنة التأليف (المترجم)

(٢) الدوناتيون : طائفة مسيحية قوية نشأت بشمال إفريقية وخرجت على كنيسة القسطنطينية ثم انشقت على نفسها ولم تزل فى شقاق قرونا عدة حتى قضى عليها الفتح العربى فى القرن السابع (المترجم)

كما أن عصابات الجلادين[1] وغيرهم من المتعصبين المتهوسين وهم المسمون (Circumcelliones) أحدثت من الاضطرابات ، ما مهد السبيل للغزاة الوندال. هذا وإن الازدهار الفجائى الذى أصابه الفن الكلتى ببريطانيا والأدب القبطى والسريانى بمصر وسورية ليشهد بأن الثقافات المكبوتة بمواطن أخرى كانت ترقب ضعف قبضة الحكم الرومانى لتواصل نشاطها . غير أن هذه الحركات كانت استثنائية . إذ إن التبلد كان الصفة الغالبة على الفلاح الذى لم يكن يتراءى له فيما يحيط به من آفاق أية بارقة تبشر بمآل أحسن ، والذى كان همه الوحيد منصرفاً إلى تجنب الهلاك جوعاً فى سنته التالية .

وأخضعت التجارة والصناعة أيضاً للسيطرة الحكومية . وقد عرفت مصر فى العهود الهللينستية هيئات مكونة من طوائف من أصحاب السفن والتجار تقوم فى خدمة الدولة . حتى إذا جاء عهد كلوديوس كانت تلك الممارسة قد امتدت إلى جماعات أو نقابات (Collegia) أخرى من البحارة (Navicu Larii) والتجار (Mercatores) فى الموانئ الإيطالية ؛ ومنذ عهد أورليان ، نالت نقابات جميع الحرف اعتراف الحكومة وحمايتها ورقابتها . على أن هذه الجماعات ، فيما عدا تجارة القوافل السورية لا تمت بأى شبه للشركات العصرية ذات رأس المال المشترك ، وكل ما كانت تفعله أن تقيم لنفسها « شخصية قانونية » سهلة ومريحة عند التعامل مع الدولة . أما الصناعة طوال تلك الفترة فكانت أساساً فى أيدى الأفراد .

ولعل نقابات البحارة أذيعها صيتا ، وذلك استنادا إلى كثير من النقوش،

---

(١) طائفة الجلادين : فئة دينية ظهرت فى إيطاليا تؤمن بتعرية أجسادها وتعذيبها بالسياط . (المترجم)

وربما أمكن اتخاذها مثالا . وقد طلب دقلديانوس منهم أن يشتركوا فى نقل المواد الغذائية ، لا لسكان العاصمة فحسب ، بل للجيوش أيضاً . وكانت ممتلكات هذه النقابات تعد رهينة لسلامة وصول الشحنات . وكان عليهم أن يسلكوا أقصر الطرق ، وألا يتوقفوا بمكان ما لم تقض عليهم بذلك ضرورة ماسة ، وكانت حرفتهم وراثية . وكذلك أيضاً انتظم الخبازون وتجار لحم الخنزير ومورّدو الخشب لأفران الحمامات وحرف وصناعات أخرى بالعواصم والمدن الصغيرة فى نقابات على نفس الأسس التى لم يكن يجوز لأحد الانسلاخ منها . وكانت ذخيرة الجيش ومعداته تنتجها مصانع للدولة يعمل بها عمال أرقاء كادحون مرهقون عملا .

وصارت الإدارة المحلية وجباية الضرائب أيضاً جزءاً لا يتجزأ من الجهاز العظيم . كما أن أعضاء مجالس المدن (Curiales) المسئولين عن الإدارة المحلية وجباية الضرائب ربما كانوا أكثر تعاسة من أية طبقة أخرى فى المجتمع . وقد كانت الإمبراطورية تتألف (فى ناحية واحدة فقط) من مجموعة ضخمة من البلديات تحتفظ بقدر كبير من الاستقلال . ولكن ذلك الاستقلال قد انتقص على عهد تراجان ، إذ تقرر إنفاذ مندوبين إمبراطوريين (Correctores Curatores) لتنظيم مالية بعض المدن ببلاد اليونان وآسيا الصغرى . وبنمو هذا الإجراء اضمحلت وطنية المدن والغيرة على استقلالها ، وأصبحت الأعمال الخيرية نادرة واستثنائية ؛ كما أن قيام المسيحية الذى أفضى إلى هدم معابد آلهة المدن (Polis) ، التى ظلت قروناً عديدة قبلة وبؤرة لولاء المجتمعات وعبادتها ، عاون على القضاء على القوى التى حافظت على حياة دولة المدينة (City-state) القديمة ، ولكن الحاجة إلى الحكم المحلى ظلت قائمة ؛ ومن ثم

بات من الضرورى إجبار أعضاء مجالس المدن (Curiales) ، وهم الموسرون من أهل المدن وأصحاب الأملاك الذين يصح انتخابهم أعضاء بمجلس سناتو المدينة أو لتولى الوظائف التنفيذية ، على مواصلة القيام بالتكاليف (Munera) المنوطة بهم كالقضاء فى المسائل الطفيفة والانتدابات لبعض المهام وفحص المبانى وخدمة البريد والنقل ، وجمع الضرائب إلى غير ذلك ، وهى أعباء لا يتقاضون عنها أية مرتبات. وقد أقيم تمييز رسمى بين التكليف (Munera) والتشريف (Honores) ، إذ كان المصطلح الثانى يطلق على الوظائف التى هى فى حد ذاتها مكافأة مشتهاة لشرف قدرها . ومما له دلالته على حالة الشعور العام أن ذلك الفرق لم يعد قائماً .

وكان من أشد الأعمال وطأة على الناس تقدير الضرائب الإمبراطورية أو جبايتها . وأعضاء مجالس المدن (أو مندوبو البلديات) هم المسئولون شخصياً عن هذه الأعمال ، وذلك بينما طلبات الخزانة الإمبراطورية فى ازدياد مستمر . وكانت توضع فى طريقهم كل ألوان العقبات . فإن كبار الملاك كانوا يرفضون الإدلاء بأية معلومات ، بل كانوا يسلحون أتباعهم لكى يطاردوا جابى الضرائب . وقد تتعرض طبقة أعضاء مجالس المدن بأسرها للدمار ، نتيجة لرداءة المحصول أو غارة جيش مغير ، وذلك لأنه لابد لهم من تسديد النقص من جيوبهم الخاصة . ومما كان يزيد فى مرارة شعور الكراهية بين المدينة والريف ، ما انساق إليه أعضاء مجالس المدن مرغمين على اللجوء إلى الرشوة والابتزاز .

اضمحلال الطبقات الوسطى

ولو تأملنا على مر العصور الأوامر الصادرة من عهد قسطنطين إلى ماجوريان وهى التى تتضمنها مجموعة قوانين جستنيان ، لأمكننا أن نتعقب من خلال مائة وخمسين عاماً صدر فيها ١٩٢ مرسوماً ، التدمير البطىء الذى أنزل بالطبقات الوسطى . فإن محاولاتهم اليائسة للوصول إلى طبقة رجال السناتو والاستمتاع بما لتلك الطبقة من مكانة وحصانة ، تُكبح كبحاً تتزايد شدته على كر الأعوام — إذ تقفل دونهم أبواب الجيش والكنيسة والخدمة المدنية . وتصبح العضوية فى طبقة أعضاء مجالس المدن (مندوبى البلديات) وراثية ؛ ولكنها من ناحية أخرى تمجد بالألقاب الرنانة : فهى تسمى آونة «بالسناتور الأصغر» وآونة « بالمكانة الرفيعة » . وقد تقرر منع الأعضاء من السفر إلى الخارج أو السكنى فى الريف ، « إذ ينبغى لهم أن يظلوا بين أحضان مسقط رأسهم ، طبقاً لمقتضيات الروابط المقدسة المقدرة عليهم ، ولأنهم يحرسون السر الأبدى الذى لا يستطيعون التخلى عنه إلا بالتخلى عن التقوى . » وهذا مثال طيب على لغة القانون وبيانه وعلى إنكاره التام لكل حرية شخصية . وتشهد مراسيم أخرى بمزيد من القيود ، وتوقف كل محاولة للهرب . ومن ثم صار الأعضاء (المندوبون) بمصر والشرق يفرون إلى صوامع النساك بالصحراء ؛ ولكنهم كانوا فى البلاد الأخرى يلتمسون الانضمام إلى نقابات أخرى أشد تواضعاً ، أو يضعون أنفسهم تحت رعاية مالك أرض قوى ، وكان كثير من صغار الملاك يفارقون مزارعهم خفية تحت ضغط الديون ، وينضمون إلى صفوف الفلاحين الصغار (Coloni) .

حياة الطبقات العليا

وعلى النقيض التام لهذه الأحوال المتعسة تنهض الحياة المترفة التى تحياها الطبقات العليا . وقد زادت دخولهم فى كثير من الحالات ، على حين تناقصت إيرادات الخزانة الإمبراطورية . كانوا يعيشون آمنين فى معاقلهم الريفية ، ومن ثم كانوا يتحدون جابى الضرائب ويؤلفون هيئة ضخمة من «الماسونية» المتكتلة المكونة من المحافظين (الحكام) والموظفين ، ترتبط فيما بينها بأواصر الدم والطبقة بغية القضاء على أهداف العدالة ومحو أثر كل مرسوم إصلاحى . ويتبدّى فيهم خليط عجيب يجمع بين خصائص العصور القديمة والوسطى . ويحيط بالأسر الكبيرة فى تلك الفترة جو إقطاعى واضح الشذى والمعالم — ومثال ذلك أسرة أنيكى (Anicii) فى روما ، وبيت آبيون بمصر وأرستقراطية جنوب فرنسا المتشابكة بروابط الصهر والقربى ، بما لها من الأملاك الضخمة المترامية التى أشبهت الممالك الصغيرة ، وقيامها بشئون القضاء قيام السادة المتصرفين ومالها من فصائل من الراكبة الأتباع . وتتجلى فى الفسيفساء المنقولة من أرضية الفيلات الأفريقية صور ومبان تشبه القلاع أو البيوت الريفية المحصنة ؛ وفيها يقدم موالى الأرض خدماتهم أو يدفعون دفعات عينية ؛ ويمارس القوم ضرباً من «الاقتصاد» يقوم على الاكتفاء الذاتى ، ويواجهون جميع مطالب الحياة بالصناعة المحلية[1] . وفى تلك الفسيفساء يظهر الورد ورفاقه ممتطين جيادهم فى أثناء خروجهم للصيد أو الاحتفاء برجال العلم . ويعطينا أوسونيوس وغيره صورة مماثلة للأحوال القائمة بجنوب فرنسا . ومنها يتبين

(١) يمكن هنا مقارنة هذا الوصف بالفيلا المبنية فى تشدورت محال كوتس ولدس (القرن الرابع) بما فيها من مكان للصباغة يثير الاهتمام . وبدل حجمها على أنه من المحتمل أن المقصود منها كان خدمة حاجات الحى .

أن أيام حياة المدن أخذت تنقضى . فإن المدن الرجعية القديمة ذات الشكل الكلاسيكى غير المسورة ، بما احتضنت من حمامات ومعابد وسقائف معمدة وأرباض (ضواحى) حافلة بالفيلات والقبور لم تلبث حتى صارت مكتظة وأحاطت بها الأسوار والأبراج التى بادر القوم إلى تشييدها معاجلين بما انتزعوه من شواهد القبور ، ومن الكتل الحجرية التى أخذوها من بعض المبانى العامة . وباضمحلال التجارة انتقل الترف إلى الريف . فزخرت السبل بقطاع الطرق ، وتوقفت الطرق التجارية العظيمة الممتدة بين الولايات عن اجتلاب الخزف أو المصنوعات المعدنية إلى دار الفلاح أو الصانع المحترف (Artisan) . وأخذت حياة القرية تنمو حول الدار الريفية (Manor) للشريف : وإن كثيراً من الدساكر الفرنسية القائمة اليوم اتخذت اسمها من صاحب الأرض الرومانى الأصل الذى كان يعيش فى مزرعته فى ذلك الأوان والذى لم يكن يحضر إلى المدينة فيما يرجح إلا لقضاء عيد الفصح أو من أجل قضية هامة أمام دور القضاء . على أن القرن التالى هو الذى شهد التطور الكامل لهذه العملية . وعند نهاية القرن الرابع كانت التجارة المنقولة بحراً لا تزال ضخمة بالغة الأهمية . ولم تبرح أجزاء كثيرة من الإمبراطورية تهنأ بالرغد واليسار ؛ إذ إن الحياة الحضرية المشرقة بمدن مثل أنطاكية والإسكندرية كانت لا تزال مستمرة ، ومع أن الزراعة انحطت منذ زمن بعيد بكل من بلاد اليونان وإيطاليا ، إلا أن قدرة الأرض على الإنتاج لم يصبها هبوط عام . إذ إن سورية ومصر وشمال إفريقية وأسبانيا وجنوب غالة كانت لا تزال تنتج محاصيل موفورة زاخرة . وينبغى ألا يغرب عن بالنا أن الزراعة فى الإمبراطورية الرومانية كانت على الدوام أهم الحرف . وفضلا عن هذا ، فإن حياة الإقطاع التى وصفناها إن هى إلا إحدى مظاهرها . أما الجانب الاجتماعى ،

فإننا لو ألقينا إليه أول نظرة ، فربما تصورنا أننا رجعنا إلى الوراء إلى عهد چوفينال أو مرتيال أو بلينى الأصغر . وإن الشعر الساخر الذى ألفه أميان وجيروم ليدور حول البذخ الذى يبديه نبلاء الرومان فى ثيابهم وولائمهم ، وحول حاشية البلاط والطفيليين والأتباع والعبيد . وفى الشرق يجأر يوحنا فم الذهب (Chrysostom) بصوت كالرعد منددآ بالحرير والجوهر والأثاث والعربات المموهة بالذهب والفضة ، ويصف المواكب المألوفة المنظمة فى تشكيلة عسكرية والمكونة من الأرقاء والخصيان والعربات التى تجرها البغال (وهى التى يلحظ وجودها أميان بروما أيضاً) ، عندما يغادر النبيل من هؤلاء مدينة القسطنطينية أو أنطاكية إلى مقره الريفى ، وقد حمل معه الرياش الكثير والميرة الوافرة لقضاء بضعة أيام فقط . وإن ذلك المنظر ليذكرنا بمنظر عربات المليك[1] الأعظم (Le Grand Monarque) ، حين تنطلق من فرساى على طريق مارلى ، غير أن الجو العام لا يفترق فى جوهره عما كان فى عصر تاكيتوس أو هوراس .

والسبب الرئيسى فى هذه الروح المحافظة التى تتجلى فى آداب سلوك الناس هو الأهمية الاجتماعية التى نيطت بشكل من أشكال التربية كان يجنح إلى الإبقاء على المعايير القديمة . فقد كانت دراسة النحو (الأجرومية) وعلم البيان ضرورية لإعداد الفرد ، لا للخدمة المدنية فقط — (ولا يخفى أن معظم أفراد الطبقات العليا كانوا فى حاضرهم أو ماضيهم موظفين فى الإمبراطورية) — بل وأيضاً من أجل الاختلاط الاجتماعى المهذب . فكان ينبغى للرجل المثقف أن يكون على معرفة جيدة بالنماذج الكلاسيكية شعراً أو نثراً ، وأن يقدّر تمام

---

(١) المليك الأعظم : يعنى لويس الرابع عشر . (المترجم)

التقدير اكتمالها الفنى ؛ وكثيراً ما كانت الأبحاث الأثرية العتيقة أو مسائل الأجرومية مدار الحديث على المائدة أو موضوع الرسائل التى يتسع وقت الفراغ لتحريرها ، غير أن هذا الإصرار على الشكل دون المادة ، هو الظاهرة الدالة على عيبين عظيمين فى فكر ذلك الزمان وأدبه . فالعيب الأول هو أن الفكر والأدب كانا غير واقعيين وعتيقين وأكاديميين . ولم تكن للكلمة المكتوبة إلا أضعف العلائق بلغة الحديث العام ، التى اشتد انحدارها وقتئذ نحو : « اللاتينية المتأخرة » التى ذاعت فى العهود الوسطى ، فإن رسائل سيماخوس إن هى إلا تدريبات واعية على التعبير الرشيق وليست أقوالا أصيلة ، أما أوسونيوس[1] الذى يستطيع أن يصور منظراً من المناظر : كارتياد الماشية للماء ، أو صائد سمك يحمل قصبة ، أو مغرب الشمس على صفحة أحد الأنهر بكل ما أوتيه « بروست[2] Proust » من دقة ، دون أن يستخدم إلا نعوتاً قليلة ، فإنه يقدم معرضاً كاملا من الصور الريفية مثل أساتذة بوردو ونراة الريف والعمات العذارى الجديرات بريشة كامبراى ، على أنه طالما أورد من الأساطير والأوصاف الكلاسيكية ما لا علاقة له بالموضوع . فإن منظر كرمة على ضفاف الجارون ، لم يكن محيص من أن يستثير منه إشارة إلى رودوبى[3] وبنجايوس ؛ ولا مندوحة للدار الريفية أن تذكر الكاتب بجميع مبانى مشاهير المعماريين من ديدالوس فصاعداً فى حقب التاريخ .

والعيب الثانى والأشد خطورة وجدية هو السلطان الجارف الذى كان لعلم

---

(١) أوسونيوس (٣١٠ — ح ٣٩٠) : شاعر لاتينى ولد ببوردیجالا (بوردو) وعين لشهرته الأدبية مؤدبا لجراتيان بن فالنتنيان . (المترجم)

(٢) بروست (١٨٧١ — ١٩٢٢) كاتب فرنسى كتب دراسة نفسية لحياته وزمانه . (المترجم)

(٣) رودوبى : ولاية يونانية بغرب تراقيا بها مناظر جبلية . (المترجم)

البيان عليهم ، فإن جميع الاعتبارات الأخرى : كالإيقاع والحصيلة اللغوية والتوكيد ، تخضع كلها لهدف واحد هو إحراز الغلبة فى الجدل . وهو المبدأ الخبيث الذى تمثله «عصائب الرءوس المقدسة المنذورة» فى رواية «السحاب» لأرستوفانيس[١] ، وتتجلى آثاره فى الكتاب المسيحيين والوثنيين على السواء فيما يقوم فى الحليات الزاهية والمبالغة الرتيبة المنتظمة ، والحيف المتعمد مع الخصوم ، وفقدان النزاهة بينهم جميعاً . وهى حال تفشو بدرجة متساوية فى هجاء جيروم وبيانيات ليبانيوس[٢] وفواصله المسجوعة ، كما تتبدى فى أسوأ صورها فى المجموعة الضخمة من الجدليين من رجال الكنيسة (الإكليروس) وحتى أوغسطين نفسه لا يسلم منها تماماً ، وإن توقد فى كتابه «الاعترافات» قبس إخلاص محموم ؛ ولم تكن نغمات الأرغن الفاخرة التى وضعها كلوديانوس[٣] إلا موسيقى للعقل وحده لا القلب . وكانت أسرار العقيدة المسيحية ورمزيتها بحاجة إلى وسائل جديدة للتعبير ، هذا وإن التراتيل الفخمة لهيلارى وإمبروز[٤] والغنائيات السحرية النابعة من يراعة برودنتيوس[٥] ، أعظم شعراء المسيحية الرومانية ، لتصهر الأخيلة العبرانية ذات السمة الاستصراخية العجيبة الواردة فى ترجمة التوراة[٦] السبعينية (Septuagint) مع المسائل الرنانة غير المفهومة

---

(١) أرستوفانيس (ح ٤٤٨ — ٣٨٠ ق.م.) مؤلف درامى فكاهى يأتينا . (المترجم)

(٢) ليبانيوس (٣١٤ — ٣٩٢ م) سفسطائى يونانى وثنى ، علم بالقسطنطينية ، من تلاميذه فم الذهب . (المترجم)

(٣) كلوديانوس (٤٠٨ م) آخر الشعراء اللاتين العظماء . ولد بالإسكندرية . (المترجم)

(٤) إمبروز من آباء الكنيسة اللاتين كتب كثيراً من التراتيل (٣٤٠ — ٣٩٧) . (المترجم)

(٥) برودنتيوس (٣٤٨ — ٤٠٥ م) من شعراء الكنيسة اللاتينية ، ولد بأسبانيا وعاصر أوغسطين . (المترجم)

(٦) ترجمة التوراة السبعينية : أقدم نسخة إغريقية من العهد القديم ويقال إن واضعيها ٧٠ عالما. (المترجم)

فى الاعتقاديات (Dogma) المسيحية ، وإن عقلية القرون الوسطى لتتجلى بالفعل فى كتاب الجهاد الأكبر (Psychomachia) وفى كتاب المقدمة[١] (Cathemerinon Liber) ، وهى عقلية يشهد ماهو محفور على أبواب مدينة شارتر ، بما ركب عليه عالمها المنتظم وما يتصل به من خطة الخلاص ومن مقابلة بين الفضائل والرذائل ومن دورات متعاقبة للمواسم والأعياد ، تلك التى جعلت موئلا ركيناً يقى الناس مما تجلبه الفوضى التى تملأ الدنيا من أخطار شيطانية شريرة .

ومن نافلة القول أن نلخص فى تجريدات آلية ميول ذلك العصر التقليدى النزعة فى كل من الفن والأدب والدين والفلسفة والعلوم . وغنى عن البيان أن التفاعلات بين المسيحية والوثنية ، أى التقاء روافد الثقافة الرومانية والإغريقية والشرقية ، لن يتيسر نقل صورة لهـا — إن كان ذلك ممكناً على الإطلاق — إلا بالإكثار من الأمثلة التفصيلية . على أنه يمكن استخلاص صورة لبعض خصائص الطبقات المتعلمة من كتاب القرنين الرابع والخامس ؛ نسوق منها التعالم الرشيق والتحررية المبهمة والإنسانية الواهنة والوحدة الوجودية غير المحددة ، وفوق كل ذلك طائفة ضخمة من الخرافات الشائعة زحفت إليهم من الطبقات الدنيا عندما ضعف المذهب العقلى (Rotionalism) . وإذا نحن شئنا أن نبحث عن التعبير الصحيح عن تلك الفترة ، وجب علينا ألا نطلبه عند الغلاة المتطرفين . فإن سيماخوس العالم المتمكن من العديد الذى لا حصر له من النحل وفلافيانوس الذى يعتبر « آخر الوثنيين » ، والذى كان المدبر للانتعاش النهائى الذى أصابته الديانة القديمة فى روما عشية انتصار

---

(١) انظر ف . ج . ا . رابى فى « A Hist ory of Christ-Lat. Poetry » (أوكسفورد ١٩٢٧) الفصل الثانى عن پرودنتيوس .

المسيحية[١] على يد ثيودوسيوس ، إنما ينتميان إلى عصر سابق . أما أوغسطين وسمان العمودى وأمبروز فهم المبشرون الآذنون بالمدرسانيين[٢] (Schoolmen) والنساك والأحبار فى العصور الوسطى . بيد أن الجمهرة العظمى من ذوى الرأى المتعلمين لاهى بالمسيحية ولا هى بالوثنية . ومما له دلالته أن عقيدة كثير من كبار الكتاب فى ذلك الزمن ، نذكر منهم أوسونيوس وكلوديانوس ونُنَّس على سبيل المثال لا الحصر ، لا تزال موضع أخذ ورد بين الباحثين .

الخلافات الكنسية

على أن عهد ثيودسيوس يعتبر مرحلة جديدة فى علاقة الكنيسة بالدولة. إذ ساد بينهما فى الداخل والخارج هدنة قصيرة من الهدوء النسبى . ففى القرن الرابع انقسمت الكنيسة على نفسها نتيجة للهرطقة والانشقاق ، وزاد من حدتهما اشتداد المشاعر العنصرية أو النزعات الوطنية المحلية . إذ إن الكراسى الرسولية فى أنطاكية والقسطنطينية والإسكندرية كانت تتنازع الصدارة على الشرق . وكان الدوناتيون بإفريقية والبرسكليانيون بأسبانيا وجماعات النساك التى تطوف بمصر والشرق الأدنى بما يبثونه من آراء عن الطعام والزواج والملكية والملبس ، — يتلقون جميعاً تأييد السكان فى مناهضة السلطة . والمعروف أن هذه السلطة نفسها التى تتمثل فى شخص الأباطرة كانت منذ وفاة قسطنطين إما أريوسية أو شبه أريوسية ، وكثيراً ما كان كبار رجال الكنيسة فى كثير من الكراسى الدينية يعزلون وفقاً لسياسة

---

(١) تمكن ثيودوسيوس الأول فى معركة فريجيدس قرب أكويليا من إنزال هزيمة ساحقة بجيش الغرب بقيادة أربوجاست الفرنجى وإمبراطوره الضعيف يوجيليوس .

(٢) المدرسانيون : هم فلاسفة أو لاهوتية العصور الوسطى . (المترجم)

الإمبراطور ، فإن تم ذلك على خلاف المشاعر الشعبية ، اقتسم ولاء المدن الكبرى أسقفان أو مطرانان أو أكثر لكل منهما أتباعه المستعدون للهياج . فقد حدث فى روما أن حزب داماسوس البابوى — فى إرهاص منه بفتن القرون الوسطى ـ اقتحم عنوة كنيسة أورسينوس البابا المغتصب[1] ، وقتل نيفا ومائة من أتباعه فى يوم واحد (٢٦ أكتوبر ٣٦٦) .

ومنذ أن عقد مجمع نيقية (٣٢٥) تكررت محاولات وضع صيغة الأركان الاعتقادية (Dogma) ، وأنتجت سلسلة من العقائد (Creeds) تمثل سنن المذاهب بمختلف ظلالها وتنتهى غالباً بصب اللعنات على الخصوم . ولم يكن بد لما كان يحدث دائماً من عودة الأحزاب المختلفة إلى التجمع ، من إحداث الشغب ، وخاصة متى زادت أوارَه المصالح السياسية أو الشخصية أو الوطنية . على أن الأمور اتخذت فى ذلك الحين مظهرا أكثر استقراراً . إذ كان الإمبراطور كاثوليكياً . ومن ثم اتخذت إجراءات صارمة إزاء مختلف الزندقات (الهرطقات) . على أن المراسيم المناهضة للوثنية اتخذت مظهرا أقوى . إذ حدث فى داخل الكنيسة أن عادت روما والكراسى الرسولية الشرقية إلى الوفاق مرة أخرى — واصطلحت القسطنطينية والإسكندرية وأنطاكية فى اتفاق على الهدف . وصار مذهب أريوس قضية خاسرة داخل الإمبراطورية ، وإن تكاثر أتباعه سريعاً بين البرابرة على حدودها . إذ لم يكن « مذهب وحدة طبيعة المسيح Monophysitism » قد ظهر بعد . وأخذ نظام الكنيسة يزداد استقراراً ، كما أخذت علاقتها بالدولة تزداد توثقا . وتأسست ـ أو وسّعت ـ

---

(١) البابا المغتصب أو المعارض Anti-Pope : هو حبر أعظم ينصب لمناهضة بابا شرعى الانتخاب . (المترجم)

امتيازات منوعة مثل التحرر من أعمـال عضوية مجالس المدن[١] (Curia) أو الإعفاء من الخدمة العسكرية ، فضلا عن حقوق الوصية والملـكية . وأصبح للأساقفة اختصاصات مدنية ، على حين باشرت السلطة العلمانية الهيمنة على الانتخابات الـكنسية بدرجة من النجاح متفاوتة رغبة فى صيانة النظام العام وحفظ وحدة الإمبراطورية .

وفى القرن الرابع تمركزت الخصومات المذهبيـة حول علاقة الابن بالآب ؛ وتمركزت فى القرن الخامس حول طبيعة الابن . ولم تـكن المسألتان منفصلتين إحداهما عن الأخرى . فأما مذهب أريوس ، فإنه عندما أخضع الابن للآب ، اعتبر عند أنصار اثناسيوس منكراً للألوهية التامة للابن . على حين أن مذهب سابيليوس ، وهو النقيض لمذهب آريوس ، كان ينكر ما للمسيح من صفة بشرية تامة — على غير أساس واف من التمييز فيما يرى أنصار آريوس . وقد عقد قسطنطين مجمع نيقية ، وهو المجمع الذى انتصرت فيه الإرادة الإمبراطورية والذى أُدين فيه آريوس . وحاولت مجامع مختلفة انعقدت فى أثناء القرن الرابع أن تقرر مذاهب إما شبه آريوسية ، وإما غير ملتزمة بشىء حيال طبيعة المسيح . ثم عقد ثيود وسيوس آخر الأمر مجمع القسطنطينية (٣٨١) ، فأكد من جديد عقيدة نيقية ، ومنذ ذلك الحين اشتد قمع الآريوسية .

وفى القرن التالى أصبحت المنازعات تدور حول علاقة الناحية البشرية بالناحية الإلهية فى طبيعة الابن وشخصيته . بيد أن أهميتها بالنسبة للمؤرخ

---

(١) أو مندوبى البلديات .

العام إنما تقوم إلى حد كبير فى النتائج السياسية المترتبة عليها . ولعل أهم تلك المنازعات التنافس الذى احتدم بين القسطنطينية والإسكندرية ، ولا شك فى أن تطورات هذا التنافس توضح كثيراً نواحى الخصومات الدينية فى ذلك العصر . وقد كانت الكنيسة منذ أول أيامها قد نظمت نفسها على غرار أقسام الدولة . فأصبحت المدن كراسى أساقفة ، كانوا يجتمعون فى مجامع دينية (Synod) تعقد بعاصمة الولاية . وأصبح أساقفة هذه العواصم مطارنة ، يهيمنون على انتخابات من يليهم من أساقفة[1] . وأخيرا يجىء دور المطران الأعلى أو البطريرك الذى يظهر فى الكراسى الرسولية الكبرى بروما وأنطاكية والإسكندرية وإفيسوس ، كما أنه بدوره يشرف على انتخابات المطارنة . ثم دخل فى الأمر عامل جديد أثار القلق حين أسس قسطنطين مدينته ، التى أخذت أهميتها تزداد منذ ٣٣٠ م . وكان أسقف بيزنطة من الناحية النظرية تابعاً لمطران هرقلية . وسرعان ما أصبح هذا الوضع شيئاً شاذاً بالنظر إلى الوضع السياسى ، وفى ٣٨١ أعلن مجمع القسطنطينية أنه لا يسبق أسقف بيزنطة فى المكانة إلا أسقف روما « لأن المدينة التى هو أسقف لها هى روما الجديدة » . وكان المبدأ واضحاً ، وكذلك كان الخطر الذى ترتب عليه بالنسبة للإسكندرية .

العداء بين القسطنطينية والإسكندرية

ومنذ ٣٩٥ يوم مات ثيودوسيوس إلى ٤٥٠ حين تولى مرقيان الحكم بعد ثيودوسيوس الثانى ، كان نجم مصر فى صعود ، وذلك لأن من استولوا على العرش من الأباطرة كانوا ضعافاً ، على حين تولى كرسى أسقفية

(١) على أن هذه التطورات كانت لا تزال غير مألوفة فى الغرب إبان القرن الرابع .

الإسكندرية مجموعة متعاقبة تكاد تتخذ هيئة الأسرة الكاملة من الأحبار المشهورين بالقوة والإقدام المجردين من كل خلق أو ضمير ، وكانوا يستخدمون طرقاً تقليدية تدخل فيها الرشوة وصب اللعنات واستغلال العداوة القومية وإرهاب المجامع باستخدام النوتية المسلحين بميناء الإسكندرية ورهبان طيبة . وتولى توجيه السياسة المصرية سلسلة من الشخصيات القوية ورجال اللاهوت الأكفاء ، واتخذ النزاع أربع مراحل : انتهت المرحلتان الأوليان منهما بنصر حاسم للإسكندرية ، وحققت الثالثة مجرد النجاح ، بينما انتهت الرابعة بالسقوط والانهيار .

المرحلة الأولى : ٣٩٨ . وفيها فشل ثيوفيلوس أسقف الإسكندرية فى الحيلولة دون انتخاب فم الذهب بطريركا لكرسى القسطنطينية بسبب تأييد يوتروبيوس الخصى تشريفاتى أركاديوس لفم الذهب .

وفى ٤٠٣ استغل ثيوفيلوس غضب الإمبراطورة يودوكسيا على فم الذهب الذى أساء إليها ، وأفاد من حنق بعض الفئات المناهضة له فى آسيا ، وتمكن بذلك من خلعه فى مجمع البلوطة (Synod of The oak) . وانتهى الأمر بإرسال فم الذهب إلى المنفى .

المرحلة الثانية : ٤٣١ . مجمع إفيسوس وفيها تمكن كيرلس أسقف الإسكندرية بفضل استخدام نفس الوسائل من خلع نسطوريوس بطريرك القسطنطينية وحرمانه من الكنيسة ، بتهمة أنه قال بالانقسام الشديد فى شخصية المسيح .

المرحلة الثالثة : ٤٤٩ . مجمع إفيسوس الثانى المعروف بمجمع اللصوص (Lotrocinium) . وفيه نجح ديوسقوروس أسقف الإسكندرية فى خلع فلافيانوس أسقف القسطنطينية وإعادة يوتيخوس وهو راهب لم يقتصر

ساعة مهاجمة نسطوريوس على الأخذ بمذهب وحدة شخصية المسيح بل وبوحدة طبيعة المسيح أيضاً . ولم يتحقق ذلك النجاح فحسب برشوة الحاجب (التشريفاتى) الخصي كريسافيوس وغيره من رجال البلاط ، بل وأيضاً بقوة مسلحة استخدمت فى المجمع . وفى هـذه الآونة أصبحت روما معادية للإسكندرية بعد أن ساندتها فى ٤٣١ بينما كانت أنطاكية تتردد فى موقفها.

المرحلة الرابعة : ٤٥٠. مات ثيودوسيوس الثانى . وطردت أخته بولخيريا الحاجب كريسافيوس ودعت إلى انتخاب مرقيان إمبراطوراً ، وإلى عقد مجمع خلقدونيـة (٤٥١) ، وفيه تقرر إدانة يوتيخوس (أوتيخا) ونفى ديوسقوروس ، وبذا زالت نهائياً سيادة الإسكندرية .

على أن نتائج مجمع خلقدونية الأخرى كانت أهم من سقوط الإسكندرية. ذلك أن المجمع أقر مبدأ طبيعتى المسيح الذى صاغه ليو (لاوون) بابا روما . فلقى ذلك مقاومة من حزب الإسكندرية ، وانتهى الأمر بأن انتشرت بكل من مصر وسورية هرطقة « وحدة طبيعة المسيح Monophysite » ، وهى مذهب لا يعترف له إلا بطبيعة واحدة فقط . ومنذ تلك اللحظة صار لزاماً على الأباطرة بالقسطنطينية الاختيار بين الاتفاق مع روما بعقيدتها السليمة وبين السلام مع إقليمين من أهم أقاليم الإمبراطورية ، وإذ أصدر زينون فى ٤٨٢ رسالته فى الاتحـاد (Henoticon) [1] اختار بذلك سبيل السلم مع الإقليمين وسار على نهجه الامبراطور أناستاسيوس . أما جستنيان فاختار

---

(١) كانت رسالة الاتحاد أو خطة الاتحاد (Henoticon) محاولة لإيقاف كل خصومة دينية بعد ذلك ، باعلان كفاية العقيدة وفقاً لما تقرر فى نيقية والقسطنطينية ، وتعبيراً فى الحين نفسه عن الرغبة فى استرضاء الكنيسة المصرية ومصالحتها بالتخلى فعلا عن قرار خلقدونية وجعله مسألة متروكة للبحث . وكان العامل الرئيسى فى تحطيمها معارضة روما لها .

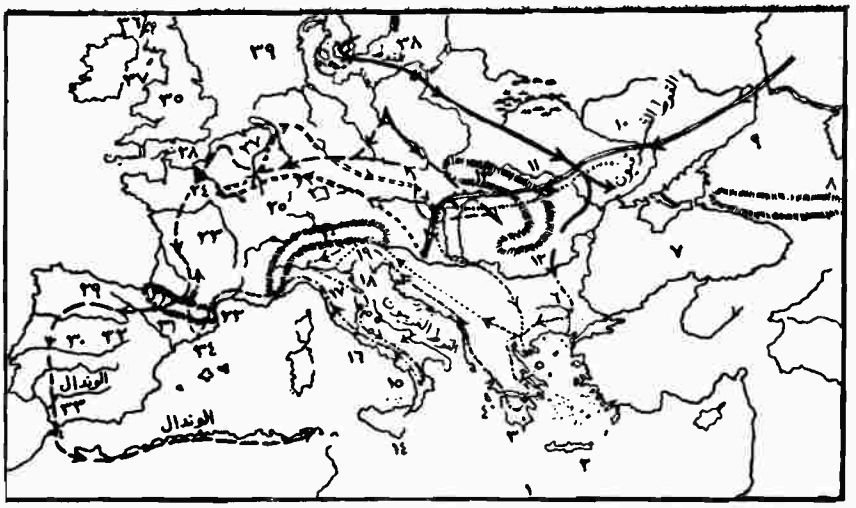

(٣) خريطة غارات البرابرة

١ — البحر المتوسط
٢ — كريت
٣ — اسبرطة
٤ — كورنثة
٥ — ثرموبيلاى
٦ — أدرنة
٧ — البحر الأسود
٨ — جبال القوقاز
٩ — الآلان
١٠ — نهر الدنيبر
١١ — نهر الدنيستر
١٢ — نهر الدانوب
١٣ — جبال الكربات
١٤ — صقلية
١٥ — كوستانزا
١٦ — روما
١٧ — فلورنسا
١٨ — راڤا
١٩ — أكويليا
٢٠ — جبال الألب
٢١ — جبال البرانس
٢٢ — نربونة
٢٣ — الفرنجة
٢٤ — باريس
٢٥ — البرجنديون
٢٦ — الألامان
٢٧ — تريف
٢٨ — نهر السين
٢٩ — السوبفيون
٣٠ — الآلان
٣١ — نهر الإبرو
٣٢ — سرقطة
٣٣ — أشبيلية
٣٤ — جزر البليار
٣٥ — الانجل ساكسون
٣٦ — الاسكتلنديون
٣٧ — البريطونيون
٣٨ — بحر البلطيق
٣٩ — بحر الشمال

والخطوط تمثل هجرات القبائل وخطوط سيرها .

═══ مسار القوط

. — . — . — مسار ألاريك وأتولف

. . . . . مسار القوط الشرقيين

— — مسار الوندال

═══ مسار الهون

= = = مسار أتيلا فى ٤٥١

ملحوظة : المسارات المبينة تقريبية

الأخذ بالرأيين على التعاقب . على أن تلك المشكلة لم تنته إلا بعد سقوط مصر وسورية فى أيدى المسلمين .

نشأة الديرية

وكانت مصر مركز هذه المنازعات : وكانت كذلك الموطن الأصلى للرهبانية . وكانت الإمبراطورية — ولم تفتأ — تحوى بكل أجزائها منذ البداية أعداداً ضخمة من الرجال والنساء (المعترفين والعذارى Confessors & Virgins) تمارس الزهد ، وتواظب على أداء الصلوات فى الكنائس . على أن أنطونيوس (ح ٢٧٠) أصبح زعيماً لحركة خطيرة منذ أن هجر العالم والكنيسة المنظمة أيضاً ، ولجأ إلى الصحراء ناسكا . واحتذى مثاله أعداد كبيرة من الناس ؛ ولم تلبث منطقة البحيرات الملحة بوادى النطرون وصحراء سقيط ، أن حوت ما يزيد على خمسة آلاف من النزلاء ، فكان بهاتين الجهتين « أشد الزهاد تمسكا بالفضائل » (Duchesme) . واستهوى تجلدهم ألباب الشرق واستولى على خياله مثلما استولت أعمال قديسى الأعمدة على الأفئدة فيما عقب ذلك من الزمان . واستحدث باخوميوس نظاماً أكثر ثمرة فى أثناء القرن الرابع . فتأسست مجموعات من الأديرة لكل منها قاعدة عامة ، وتخضع لسلطة واحدة . وكانت تزورها جماعات من الحجاج يفدون إليها من روما وغالة وأسبانيا ، ما لبثوا أن نقلوا طرائقها إلى الغرب . ثم ما عتمت منطقة سيناء وفلسطين وسورية حتى امتلأت بالرهبان الذين يعيشون فرادى أو فى مجموعات . وفى آسيا الصغرى ، وضع باسيليوس طائفة من القواعد تفوقت فى اعتدالها ونظامها على قواعد باخوميوس ، وظلت منذ ذلك الحين إلى اليوم معمولا بها فى إدارة جميع أديرة العالم الإغريقى والصقلبى (السلافونى) . وكان الرهبان

يتنازعون أحياناً مع سلطات الكنيسة والدولة جميعاً ؛ وكانوا يتسلحون بالهراوات ويهاجمون المجامع الدينية ويشتتونها ، أو يهدمون معابد الوثنيين أو الهراطقة أو محاريبهم المقدسة . فالقومية النامية التى تؤذن ببزوغ فجرها الآداب القبطية والسريانية وجدت أبطالها فى أشخاص مثل شنوده (Shenuti)، الذى راح من أبراج ديره الأبيض القائم على رأس تل ، يقود مئات من الأتباع محرضاً إياهم على مهاجمة من يعصر من الكفرة والآثمين والقضاة الظالمين وأصحاب الأملاك الجائرين .

على أن النفوذ السياسى للرهبان كان أمراً محلياً ومتقطعا . وأهم منه السلطة العلمانية المتزايدة التى أوتيتها الكنيسة بوصفها هيئة ضخمة ذات جيش من الأتباع ، تملك الأراضى والثروات والمؤسسات الخيرية ويرأسها أساقفة أصبحوا أهم الشخصيات فى مدن الأقاليم . فإن أكاكيوس فى آمد (Amida) وسينيسيوس فى برقة (Cyrene) وسيدونيوس فى أوفرنيه (Auvergne) وغيرهم كثير ، هم الزعماء الطبيعيون للمجتمع ؛ فكانوا يرأسون السفارات إلى البرابرة وكانوا يحمون قطيعهم (المسيحيين) من المجاعة والعدوان ، بل لقد كانوا يتولون تنظيم المقاومة المسلحة للعدو .

الفصل الثانى

عالم البرابرة

الغزوات

تكفى نظرة واحدة إلى الخريطة لإظهارنا على الموقف الخطر الذى تتعرض له الإمبراطورية فى ٣٩٥ . فعلى نهر الراين حل محل القبائل المتناثرة التى عرفها قيصر وتاكيتوس ، خط قوى من أقوام أخذت تنتقل ببطء نحو الغرب من منطقة البلطيق ، وكلما اقتربت من التخوم الرومانية ازدادت تماسكا وقيمة حربية . وكانت المجموعتان الفرنجيتان (Frankish) أقوى هذه الأقوام ؛ على أن الألامان الذين عرفوا طريقهم إلى الزاوية المنعكسة بين الراين والدانوب لم يكونوا أقل خطراً منهم، وذلك بسبب المركز الاستراتيجى الذى صار لهم . فأما الزاوية المنعكسة الأخرى التى كونها التواء الدانوب قرب بودابست وبلغراد صوب الجنوب ثم الشرق ، فإنها امتلأت إلى حد كبير عندما أنشئت ولاية داكيا (: ترنسلفانيا ورومانيا) ؛ على أن هذه الولاية الأخيرة تركت للبرابرة بعد ٢٥٧ : فإن الوندال الأسدنجيين (Asding) كانوا يملكون عند ذاك الشمال الغربى من هذا الإقليم ، بينما أخذ القوط الغربيون يضغطون جنوباً منذ ٣٦٤ على الدانوب ، وقد سد الاثنان الطريق على الجبيد (Gepids) . وكان القوط الشرقيون لا يزالون يتجولون فى السهول العظيمة بجنوب الروسيا ، ولم يكونوا فيما عدا بضع ثلل قليلة جوالة منهم، قد احتكوا مباشرة بالإمبراطورية الرومانية ولا اتصلوا بها . وإلى أقصى الشرق نزل

على نهرى الدون والقولجا الآلان وهم شعب إيرانى ، ومن وراء ذلك الخط الأول كانت تنزل قبائل أخرى قلقة مستعدة للقيام بدورها ـ منها السكسون على نهر انويزر والآنجل فى إقليمى شلزويج وهولشتين ؛ فضلا عن السويف على نهر الإلب واللومبارد فى سيليزيا والهيرول (Heruls) بالقرم والصقالبة وراء مستنقعات البريبيت .

وكان كل قطاع من تلك الحدود الطويلة يتعرض فى وقت من الأوقات لمغير يتهدده بالاختراق أو يخترقه فعلا ؛ على أن الرومان كانت لهم خطوط مواصلات داخلية ، وكانت الجيوش تبادر إلى النقطة المعرضة للخطر . فأما الآن فلم يعد لذلك التدبير جدوى . إذ برزت قوة جديدة من أرض السهوب الآسيوية ، كان ضغطها هو المحرك لهجمات البرابرة ، التى أصبحت مستمرة بكل مكان ، والتى لم ينقض عليها أكثر من جيل واحد حتى حطمت الإمبراطورية فى شقها الغربى . وكانت تلك القوة الضاغطة هى الهون . فالمعروف أن الهون بلغوا نهر القولجا بعد ٣٥٥ بقليل ، فقهروا الآلان وردوا القوط الشرقيين إلى ما وراء الدينستر (ح . ٣٧) ؛ ودفع الضغط بالقوط الغربيين حتى عبروا الدانوب ، وكانت معركة أدرنة الكبرى فاتحة مصائب روما . وتوقف زحف القوط الغربيين بضع سنوات بفضل ثيودوسيوس ، فلما وافاه أجله أخذوا يعيثون فى بلاد اليونان تدميراً وانتهاباً (٣٩٦) ويستقرون فى إبيروس (٣٩٩) فهددوا بذلك شبه جزيرة البلقان وشبه جزيرة اليونان ؛ ثم أوقفهم استيليكو حيناً من الدهر ، ما عتموا بعده أن استولوا فى النهاية على روما (٤١٠) ، ثم تجاوزوها إلى أكيتانيا (٤١٦) حيث أقاموا فى النهاية مملكتهم التولوزية (Tolosan). وفى تلك الأثناء انحاز إلى الآلامان فى أثناء فرارهم غرباً ، الوندال

الأسدنجيون (٤٠١) ، الذين اكتظ بهم وادى النيس ، وأخذوا يتحولون إلى ديار ذوى قرباهم بسيليزيا ويزيدونهم عدداً . ويعززهم السويف ، وتتقدم الشعوب الأربعة فتخترق حدود الراين عنوة (٤٠٦) وتتجول فى أرجاء غالة ثم تعبر جبال البرانس (٤٠٩) وتعيث بأسبانيا فساداً طيلة عشرين عاماً ، قبل أن يستولى الوندال نهائياً على مملكتهم بأفريقية ، وبعد مضى خمسين سنة استقر القوط الغربيون بإيطاليا ، واقتسم الفرنجة والبرجنديون بقية غالة . وبات الأنجل والسكسون منهمكين فى فتحهم لبريطانيا ، فإذا انتهى القرن الخامس كانت كل الأقاليم الغربية بأيدى البرابرة .

التاريخ المبكر لألمانيا

والتاريخ المبكر لألمانيا غامض يغشاه الضباب شأن الغابات والمستنقعات التى كانت تغطى الشطر الأعظم من البلاد . فعلى شواطىء البلطيق بين نهرى الإلب والأودر كانت تقوم المستقرات الجرمانية البدائية ، وهى مجموعات من الخصاص تبنى حيثما قطعت الغابات أو فى المناطق المرتفعة وتسكنها قبائل تحترف الصيد أو الرعى . فإذا تزايد السكان أو ندر الصيد تحركوا غرباً ، دافعين أمامهم الشعوب الكلتية ، وهم السكان الأول لجنوب ألمانيا وغربها . فبلغوا الراين حوالى ٢٠٠ ق . م . ، وفى مدى قرن واحد لم تعد باڤاريا كلتية السكان . على أن فتوح قيصر فى غالة وطدت حدود الراين ؛ فلما واجه الألمان الغربيون ذلك الحاجز لم يستطيعوا إحراز أدنى تقدم بعد ذلك . فتحتم عليهم أن يتخذوا وسائل بالغة الأثر فى إنتاج المؤن . وكانت نتيجة ذلك أن تطورت الزراعة وتبلورت النظم . وحمل إليهم تجار الرومان أنواعاً جديدة من السلع

وضروباً أجنبية من آداب السلوك . ويصف تاكيتوس الذى كتب بعد ذلك بمائة وخمسين عاماً نوعاً من الثقافة يفوق فى التقدم ما شهده قيصر .

وفى تلك الأثناء كانت قبائل جرمانية أخرى تعبر البلطيق من شبه الجزيرة الإسكندناقية فيما بين القرنين السادس والثالث ق . م وتستقر على شاطئه بين الأودر والڤستولا . واتخذ هؤلاء الألمان الشرقيون لأنفسهم طريقاً آخر مخالفاً ، ففى أثناء القرون التالية التمسوا لهم طريقاً صوب الجنوب عبر أوربا ، إما صاعدين الڤستولا إلى جبال الكربات وإما مخترقين پولندة ومستنقعات البريپيت إلى السهول العظيمة التى تمتد شمال البحر الأسود . وقد ظلوا يتحركون على الدوام سعياً وراء المراعى الجديدة ، فاحتفظوا بذلك بطرائق عيشهم البدائية على نقيض الجرمان الغربيين . على أن الصورة المركبة التى يصح استنتاجها مما سطره قيصر وتاكيتوس وغيرهما من الرحالة أو العلماء (Savants) ، الذين دونوا عجائب الشعب الجرمانى ، ينبغى ألا تطبق عليهم الآن إلا مع شىء من التعديل ، وذلك بمراعاة مختلف مراحل التطور التى ألمت بمختلف القبائل والتى لا نعرف عنها سوى النزر اليسير ، ومن العسير دائماً على المراقبين المتحضرين أن يتجنبوا نسبة الصلابة الشديدة والتمسك ، بالمألوف إلى الأجناس التى هى أشد بساطة ، ذات الأفكار المبهمة والعادات المتغيرة يضاف إلى ذلك ما كان من اختلاف جوهرى فى الثقافة بين الجرمان وسكان دول المدن فى البحر المتوسط . فقد أُخضع الفرد فى تلك المدن ، للدولة منذ عدة قرون خلت ؛ فإن ابتعد عنها ، أصبح منبوذاً ، وصار غير مكتمل الإنسانية . فأما الجرمانى فى عزلته أو فى مستقر أسرته الصغير ، فكان قبل كل شىء فرداً يأبى كل تدخل فى شئونه ، ولا يعترف بأى التزام خلا التزام

الولاء لكلمته وعهده حين يعطيهما لفرد آخر . ومن هنا غلبت عليه نزعة دائمة للابتعاد عن كل مركز أو بؤرة يجتمع إليها الناس ؛ ولو تتبعناه فى كل مراحل تطوره الدستورى الأبكر ، وجدنا أن جميع روابطه مع العائلة والعشيرة والدولة تتحطم . إذ لم يكن بد من حدوث سوء التفاهم بين الطرفين . وأضحى غدر الچرمان موضع التندر عند الرومان ، نظراً لخرقهم المعاهدات وشنهم الحروب الغادرة . كما أن الولاء الشخصي الذى لعله يكون التفسير الصحيح لخلق استيليكو المتذبذب ، ربما كان السبب فى شعور الكراهية الذى يحسه خصومه إزاء ما لا يستطيعون فهمه .

وقد كانت كل قبيلة عند استقرارها فترة من الزمن تحتل منطقة تحددها العوائق الطبيعية كالمستنقعات أو الغابات أو الأنهار . وكانت القبائل تنقسم إلى بطون (فروع Gaus) ، تتفاوت فى ضخامتها ، وتقدم للجيش بين ألف محارب وألف وخمسمائة . وكل بطن من هذه البطون تنقسم إلى ما يعرف بالمئين ، وهى جماعات خاصة ، تتراوح الواحدة منها بين المائة والمائة والعشرين من الأحرار ، وذلك لأغراض الحرب أو القضاء ، وترتبط بالعشيرة ؛ وهى مجموعة مؤلفة من عائلات تتراوح عدتها بين العشرة والعشرين . واستمر نظام المئين على الرغم من كل التغييرات التى حدثت ، وصار أساساً . (وما تلحظه هنا وفى مواطن أخرى من «سيمترية» ودقة لا ينبغى تطبيقه حرفياً) .

وكانت السيادة فى يد الجمعية الشعبية (Thing or Mallus) ، وهى الاجتماع الذى يضم جميع المحاربين الأحرار ، وهى التى تنتخب الحكام وتبت فى معاهدات الحرب والسلام ، وتختار أعضاء جدداً فى المجتمع ، وكان يدعو إلى اجتماع تلك الجمعية ملك يرأسها أو رئيس البطن من القبيلة أو زعيمها

(فى القبائل غير الملكية) ، وفيها يقدم القرابين كاهن أعلى وينزل العقوبات بكل من ينتهك هدنة الجمعية . وكان رئيس البطن (Gau) يقود كتيبة فى الحرب ، ويوفر العدالة بمحكمته بمساعدة رؤساء المئات (المئينيات) ، ويعطى كل عائلة نصيبها من الأرض . وكان الملك فى الأيام الأولى سلطات بالغة التحديد . وكان لبعض القبائل ملكان ، ولبعضها الآخر ملك واحد . وكان بعضها ينتخب قائدا يقتصر عمله على قيادة حملة عسكرية واحدة ، أو يختار رئيس بطن (Gau) ليرأس الجمعية الشعبية ؛ ونم قبائل أخلت فيها الملكية مكانها لحكم الكهان . ومن حق القبيلة أن تعزل الملك إذا أساء أو ظلم ؛ ومع أن الملوك كانوا يختارون عادة من عائلة بعينها ، فإن كل فرد منها كان يصح انتخابه . وكان كل شخص قوى الشخصية يستطيع أن يجعل الملكية قوة فعالة ، ولاسيما وقت الحرب ؛ ومما زاد فى سلطة الملك اتصال القوم بالاستبداد الرومانى ، ولا سيما حينما تستقر القبيلة فعلا داخل الإمبراطورية .

أما الجيش الذى هو نفسه جماعة الأحرار شأنه فى تاريخ بلاد الإغريق وروما الباكر ، فإنه كان ينتظم الآلاف والمئات والعشائر . وكان تشكيله فى المعركة يتخذ عادة صورة الإسفين (Cuneus) . والقاعدة الجارية أن الخيالة كانت أهم أسلحته ، على أن الفرنجة كان يغلب عليهم القتال راجلين . وكانت المعادن نادرة . ومما كانوا يستخدمونه فى المعارك قلانس الجلد ، والتروس المستديرة المصنوعة من الخشب أو الأغصان المضفورة والمغطاة بالجلد الناشف ، فضلا عن المزاريق (وهى السلاح الرئيسى) . والهراوات والقسى وفئوس القتال . وكانت القلاع المستديرة المقامة بقنن التلال أو صفوف العربات هى تحصيناتهم . وتطورت صناعة السفن بين القبائل البحرية ، بادئة بالأشجار

الضخمة المحفورة ، التى تتسع لعـــدد قد يبلغ الثلاثين رجلا ، فتنتقلة إلى الغلايين[١] المصنوعة من الألواح على النحو المعروف عند الفيكنج ، والتى تتسع لأكثر من مائة ، إلى سفن القرصان السكسون ذات الشراع المصنوع من الجلد ، والتى أصبحت مصدر الفزع لموانئ بحر المانش .

وكانت أدنى طبقة فى المجتمع تتكون من شعوب مغلوبة تقوم على فلاحة الأرض ، وذلك فضلا عن وجود قلة من خدم المنازل معظمهم من أسرى الحرب ؛ وكان عدد أفراد هذه الشعوب الخاضعة يزداد كلما نمت الزراعة (وذلك لأن الجرمان الأحرار كانوا يأنفون ممارسة الفلاحة) . حتى جاء أوان أصبح فيه الهدف الأول من الغارات الحصول على هؤلاء العمال الزراعيين . وكانت الطبقة الثانية وهى طبقة الأحرار ، هى الجمهرة الغفيرة من السكان . أما النبلاء فهم عائلات الملوك ورؤساء البطون . وكان لكل ملك أو رئيس الحق فى أن يتخذ له أتباعا (رفاقا Comitatus) وهم جماعة من الأتباع الأحرار الذين كانوا يتناولون الطعام على مائدته زمن السلم ، ويشكلون حرسه الخاص فى أثناء المعارك .

على أن البيان السابق ينطبق على جرمان الغرب المستقرين أكثر مما ينطبق على تلكم القبائل البدائية التى نحن على وشك أن نترسم تجولاتها[٢] .

---

(١) الغليون معرب لفظة (galley) وهى لفظة مستخدمة من قديم الزمان فى حوض البحر المتوسط وتدل على طراز قديم من السفن التى تدفع بالمجاديف والأشرعة . (المترجم)

(٢) إن العادات العقلية التى أنتجت هذه الثقافة ، كانت مع ذلك شائعة الانتشار بين جميع الشعوب التيوتونية ، كما أن النظم التى لم توجد إلا فى صورة بدائية فى أثناء فترة الهجرة ، مالبثت أن ازدادت تطورا عندما توقفت الهجرات . على أن الصراع بين هذه النظم الجرمانية وبين الحضارة الرومانية سوف يؤلف أساس الفصل التالى .

وكانت الماشية أهم مصدر للطعام فى أثناء الزحف والمسير ، وفى ذلك إلى حد كبير تفسير للسرعة المدهشة التى كانت تنتقل بها الجموع المهاجرة ، فإن دوابهم لم تكن فى حاجة إلى وسائل نقل ؛ بينما الواقع أن عرباتهم كانت تجرها الثيران فعلا . ومن العسير تقدير أعداد الشعوب الغازية ؛ ومن المحتمل أن الشعوب الكبرى منها كانت تضم أعدادا تتراوح بين الثمانين ألفا والمائة والعشرين ألفا ، على حين أن عدة الصغرى منها كانت تتراوح بين ٢٥٫٠٠٠ إلى ٥٠٫٠٠٠ ويمكن اعتبار مقدار الخمس من كل شعب رجالا مقاتلين ، إذ إن المعارك الكبرى التى كانت تنشب بين الجيوش الإمبراطورية وأعدائهم الجرمان كان يشترك فيها قرابة عشرين ألفاً فى كل من الجانبين . ومن ثم يجوز القول بأن الإمبراطورية الرومانية تعرضت لهجمات أعداد جارفة من الأعداء .

وليس من اليسير علينا أن نشهد صورة كاملة لهؤلاء القوم « على مألوف عادتهم من العيش » . غير أن الرومان اهتموا بالناحية البشرية (الأنثروبولوجية) لهؤلاء الجرمان ، هؤلاء الأطفال الطوال ذوى الشعور الشقراء الذين يزينون أنفسهم بدمالج السواعد والسلاسل المصنوعة من الذهب ، وهم يرقدون أسابيع ناعسين أمام النار ، عاكفين على الشراب أياماً كاملة بلياليها ، أو تجيش نفوسهم بالحزن أو الغضب المفاجىء ، فينفجرون بالبكاء أو يصرعون أحد الأرقاء ؛ أو يتصايحون مع جيرانهم ، أو يغيرون على الماشية ويحيون قادتهم فى المجالس بدق تروسهم بمزاريقهم أو يتبعونهم فى معمعان المعركة حتى الموت . على حين أنهم يتراءون لنا متماثلين ؛ فيبدون للعين الباصرة برابرة يكتسون الجلود ، ويبدون لعين العقل جماهير من الجياع تدفعهم قوى اقتصادية إلى الأمام . ومن العسير التفرقة بين أمة فيهم من أمة . فاللومبارد

يحملون فأس القتال (Barda) الطويلة ، ويتخذ الفرنجة الفرانسيسكة (Francisca) القاتلة ، ويشهر السكسون سيفا قصيرا (Sah). ويكتب سيدونيوس فى أخريات القرن الخامس عن البرجنديين بأن الواحد منهم يبلغ طوله سبع أقدام ، وأنهم يدهنون شعورهم بالزبد الزنخ ، ويشتهرون بالشراهة فى الطعام ويتحدثون بأصوات جهيرة. والفرنجى أشهب العينين حليق اللحية أصفر الشعر ويرتدى سترة (Tunic)[1] ملتصقة بجسمه . ومع ذلك فما أقل ماتبرز الشخصيات بين هؤلاء الأقوام . فإن ماربود (Marbod) وإرمانارياك (Ermanaric) ، وهما سيدان أعليان لإمبراطوريات متناثرة لم يزيدا على كونهما مجرد اسمين . وأزمنة الهجرات هى عصر البطولة عند الشعوب الجرمانية ، كما أن الشخصيات والأحداث التى كانت تمس أخيلتهم ، لاترى إلا معتمة فى شذرات من القصص الشعبي ، وحلقات الملاحم التى تعرضت إلى التشويه والالتواء فى الأزمنة المتأخرة .

فإن أسطورة الأيلة[2] التى قادت الهون خلال مستنقعات القرم حتى فاجأوا الآلان إنما تنطوى على شيء من الرعب السائد فى ذلك الزمان . ولا يزال شخص ثيودوريك الجبار العاتى وحصاره الطويل لمدينة راڤنا الحافلة بالأسرار ينعكس فى قصص ديتريتش فون برن[3] ورابنشلاخت . كما أننا نلمح فى ملحمة نيبلونجنليد (Nibelungenlied) بصيصاً ضئيلا عن قصر جندريك البرجندى القائم على الراين وما اشتهر به من الفخامة والروعة .

---

(١) السترة أو التونقة : جلباب رومانى يشبه القميص . (المترجم)

(٢) الأيلة أنثى الأيل وهو الوعل وجمعها أيايل (المترجم) .

(٣) أعنى ثيودوريك الفيرونى (Dietrich von Bern & Rabenschlacht) .

القوط الغربيون

كان القوط الشرقيون والقوط الغربيون فى الأصل شعباً واحداً . ويظهر من ثنايا أساطيرهم ودلالات أسماء الأماكن أنهم عبروا البلطيق قبل القرن الرابع قبل الميلاد من اسكندیناوه إلى مصب الڤستولا . وحوالى ١٥٠ للميلاد شرعت بعض القبائل القوطية تتحرك صوب الجنوب الشرقى ، حركة دفعت بهم إلى أعلى الڤستولا خلال مستنقعات البريپت ، حتى بلغوا فى النهاية حوض الدنيپر الأدنى والساحل الشمالى للبحر الأسود . ومن ثم تفرعوا فرعين : اعتبر معناهما — بالنظر إلى ما نالا ذلك من أحداث — القوط «الشرقيون والغربيون». وسرعان ما انتشرت قبائل القوط الشرقيين بأرجاء جنوب روسية ، على حين انحرف القوط الغربيون نحو الغرب ، ودأبوا على إيقاع الفساد بولاية داكيا ، بل حتى بمقدونية وبلاد الإغريق . وأخيرا لم تعد روما تستطيع الاحتفاظ بداكيا ؛ فانسحب تجارها وموظفوها إلى ما وراء الدانوب ، الذى صار من جديد ، بعد تحصينه ، حداً للدولة ، شأنه قبل عصر تراجان .

وفى ذلك الحين أخذت تنكشف تغيرات كثيرة : فقد دخلت إليهم المسيحية الآريوسية ، فأحدثت بينهم الشقاق الداخلى . وقدر لصورتها الإلحادية أن تلعب بينهم وعند سائر الشعوب الجرمانية دوراً عظيما فى شحذ الشحناء والعداوة بين الرومان والبرابرة. وكانت نتائج غزوة الهون أهم من ذلك كثيراً. وقد غلب الفزع على القوط الغربيين فحصلوا من الإمبراطور على إذن بعبور الدانوب إلى موپسيا الدنيا (بلغاريا) ، ثم ترامى بهم الأمر إلى الاستقرار داخل الإمبراطورية كوحدة قومية . وهذه هى البادرة الأولى للطريقة التى تمزقت على غرارها أوصال الأقاليم الغربية بعد زمن يسير . غير أن الاستقرار كان مؤقتاً ؛

ولم يتم فعلا إلا بعد حرب استمرت أربع سنوات ، بسبب ما تعرض له هؤلاء اللاجئون من معاملة سيئة من قبل الموظفين الرومان ، كما لم تبلغ المسألة ذروتها إلا بكارثة (٣٧٨)[١] العظيمة . ولمعركة أدرنه أهمية مزدوجة . فإنها من أعظم ما منيت به روما من الهزائم على يد الجرمان ، ويمكن وضعها فى مصف فاجعة ڤاروس (Varus) التى حدثت عام ٩ للميلاد ، وموت الإمبراطور دكيوس فى (٢٥١) . كما أنها البداية الحقة لحروب القرون الوسطى ؛ فمنذ تلك اللحظة أصبحت الجند الراكبة الثقيلة التى دهمت بسنابكها الفرق الإمبراطورية ، هى العامل الفاصل فى المعارك ، حتى تحدى حملة الحراب السويسريون والرماة الإنجليز فى القرن الرابع[٢] عشر كل ما كان لها من تفوق .

ولعل أعظم الأحداث شأناً انتخاب القوط الغربيين ألاريك ملكا لهم ، عُقيب وفاة ثيودوسيوس . وقد عمد ألاريك شأن كثير من المقتدرين من الجرمان ، إلى التحلل إلى حد ما من أواصر الدم ، وانخرط فى الجيوش المحالفة للرومان . ولعله كان يأمل فى الارتقاء إلى مركز هام بالإمبراطورية ، كما فعل أربوجاست واستيليكو وغيرهما . ذلك بأن ما لجأ إليه من المداورات العجيبة إبان السنوات الخمس عشرة التالية يصح تفسيره على أن مصالحه لم تتفق فى مجموعها مع مصالح قومه من القوط الغربيين (التى اقتصرت على حيازة الأرض وتلقى المعونة المالية) ، بل كانت تتجه نحو إحراز وضع خاص داخل الإمبراطورية . فبدأ بإعمال التدمير والفساد بكل بلاد اليونان ، بما فى ذلك شبه جزيرة

---

(١) انظر ص ٧٥ بعنوان الغزوات .

(٢) على أن أهمية الخيالة تجلت فى أوائل القرن الرابع ، وبخاصة فى معركة مورسا (Mursa) فى (٣٥١) .

البيلوبونيز (المورة) . وكانت جند الرومان بقيادة استيليكو الذى لم يقم بأية مقاومة فعالة لعدة أسباب[١] . وكانت الخطوة التالية هى تعيين ألاريك « سيدا للجند » فى إلّيريا (Illyricum) ، وهو أمر أرضاه مدة أربع سنوات . على أن ما كان يأمله من القسطنطينية من ترقيات أخرى ، ربما قضت عليه الأزمة التى ثارت ضد الجرمان ، وهى الأزمة التى كانت تتفزز بها تلك المدينة[٢] ، ومن ثم حول وجهته نحو الغرب . ولكن حظه فى الغرب لم يكن أسعد منه فى الشرق . فلو خامرته بعض الآمال فى الوصول إلى تسوية مع استيليكو ، فإنها تبددت يوم وقعت فى الغرب أزمة مناهضة للجرمان كالتى وقعت فى الشرق أعقبها مقتل استيليكو وملاحقة البرابرة بالقتل والذبح بكل أرجاء إيطاليا . وعندئذ لم يعد يبدو محتملا تحقيق شيء من مطمعى ألاريك وهما : — توفير مستقر من الأرض لقومه والحصول على منصب سام لنفسه فى الشق الغربى من الإمبراطورية . ومن ثم زحف بجيوشه على وسط إيطاليا . وكانت الحكومة الرومانية تتخذ أحياناً طريق العناد وتنزع أخرى إلى الإذعان . وارتاب ألاريك فى الأمر ، وخشى الخيانة فثارت ثائرته ، وما نشب أن فرض الحصار على روما ، التى سبق أن أدت له إتاوة مقابل رحيله عنها — ولم تلبث المدينة الإمبراطورية أن سقطت فى ٢٤ أغسطس (٤١٠) . فنهبت دور النبلاء وأحرقت ، ولكن الأنفس التى أزهقت كانت قليلة . ونجت الكنائس من كل ضرر (فإن ألاريك كان مسيحياً أريوسى المذهب) ولم يحق بالآثار القديمة ضرر بليغ . ولكن أخبار الكارثة تردد صداها بكل أرجاء العالم المتحضر ؛

---

(١) انظر ص ٧٦ وانظر ما ورد بعنوان : « القرن الخامس فى الغرب » ف ٣ .

(٢) انظر ف ٣ بعنوان تصادم الحضارات .

غتراءى للكثيرين أن نهاية العالم قد أزفت[١] .

وعندئذ اقترح ألاريك عبور البحر إلى إفريقية ، إما بقصد إسكان شعبه بصفة دائمة فى ذلك الإقليم الغنى أو التحكم فى إيطاليا بوضع يده على مستودع قمحها . ولكن سفن النقل حطمتها عاصفة مباغتة ، كما أن ألاريك نفسه مات قبل نهاية العام . على أنه لا بد أن نتذكر أن غزوته لم تكن هجوماً معادياً موجهاً على الإمبراطورية ، فإنه شأن بقية الجرمان كان يعد الإمبراطورية نظاماً ضرورياً ، له ولقومه فيها حق طبيعى فى الحصول على مكان . وتتبدى هذه الفكرة بشكل أدعى للعجب عند أتولف شقيق ألاريك وخليفته . فإنه سمع وهو يقول إنه كان يأمل أن « يحول رومانيا إلى قوطيا » ويجعل من نفسه إمبراطورا قوطيا عليها . ثم عاد بعد ذلك وقد اقتنع بأن القوط أبعد الناس عن احترام القانون وأشد الناس شماسا ، بحيث لا يصلحون ورثة الرومان ، فعول على استخدام شعبه فى خدمة الإمبراطورية وا كتساب لقب معيد مجد العالم الرومانى (Restitutor orbis Romani) . ولعل عدوله هذا عن رأيه قد حدث عندما انتقل إلى بلاد غالة ، وخاض الحرب لصالح الإمبراطورية وتزوج فى ناربون[٢] من جالا بلا سيديا شقيقة الإمبراطور ، التى كانت أخذت أسيرة من روما ، ومع ذلك فإن هذه الفعلة الأخيرة كدرت هونوريوس ؛ وعندئذ قطع أسطول رومانى الطريق على ميرة القوط ، فاقتادهم أتولف

---

(١) إن أعظم أعمال أوغسطين وهو كتاب : De Civitate Dei « أى مدينة الله كتب استجابة لما أحسه المسيحيون من حاجة إلى فلسفة للتاريخ تستطيع تفسير هذه الكارثة ، وتعليل الحقيقة المزعجة : من أن المدينة التى عاشت بعد أباطرتها الوثنيين ، قد وجب أن تسقط أخيرا عندما اعتنق حكامها الدين المسيحى .

(٢) يسميها مؤرخو العرب أربونة (المترجم)

إلى أسبانيا ، حيث مات فى السنة التالية . وانتقم القوط من الرومان على هذا التصرف ، فأنزلوا كثيراً من الإهانات بجالا بلاسيديا ، ثم توصل « واليا Wallia » الملك التالى الذى عقبه فى الملك إلى عقد اتفاق مع روما : تقرر بمقتضاه أن تعود جالا بلاسيديا إلى وطنها مقابل حصول القوط على ما يلزمهم من طعام ، فضلا عن قيام القوط الغربيين بتطهير أسبانيا من المغيرين من الوندال والسويف والآلان. حتى إذا أفنى القوط الغربيون الوندال السيلنجيين ومعظم الآلان ، حصلوا على مستقر دائم لهم ، تقرر أن يكون بفرنسا لا بأسانيا ، حيث صارت لهم الغلبة والسيطرة بدرجة يخشى شرها . ومنذ تلك اللحظة عملوا فى الدولة جنداً مرتزقة محالفين (Foederati) ، وأصبح فى حوزتهم ما يسمى اليوم باسم أكيتانيا (اكويتين) وهو الإقليم الواقع بين نهرى اللوار والجارون . وهذه المنطقة التى كانت تضم پواتييه وبوردو وتولوز ، كانت لا تزال جزءاً من الإمبراطورية ، كما أن سكانها الرومان ظلوا خارج سلطان القوط الغربيين كما ظلوا خاضعين للإدارة الإمبراطورية ، على الرغم من أنه تحتم عليهم أن يتنازلوا عن ثلثى أرضهم للوافدين الجدد .

وفى تلك الأثناء كان البرجنديون وهم من الجرمان الشرقيين الذين نفذوا إلى سيليزيا قرابة ١٥٠ للميلاد ، ثم دخلوا وادى المين بعد ذلك بمائة سنة ، — قد شقوا طريقهم بين ظهرانى الألامان إلى نهر الراين ، فبلغوه فى نهاية القرن الرابع . وفى ظل حكم أسرة جيبيتشنج (Gibichumg) (وهو اسم رددت صداه موسيقى ڤاجنر) التى كانت ورمز مقر حكمها ، — أجاز لهم الرومان حيازة ما يقع على جانبى النهر (الراين) من الأراضى بقصد حماية التخوم من غارات الألامان ، وفى أقصى الشمال ظلت مجموعتا الشعوب المعروفة باسم الفرنجة الساليانيين والريبواريين ، مصدر خطر مستمر نحو

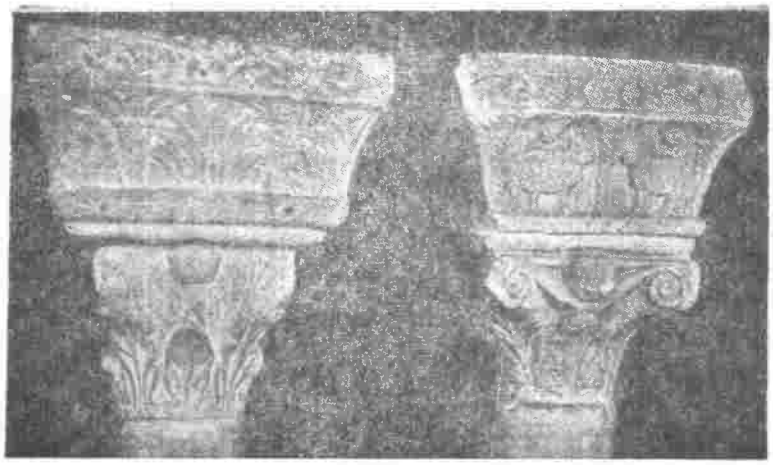

٤ — (ا) صورة تيجان أعمدة من عهد الميروفنجيين

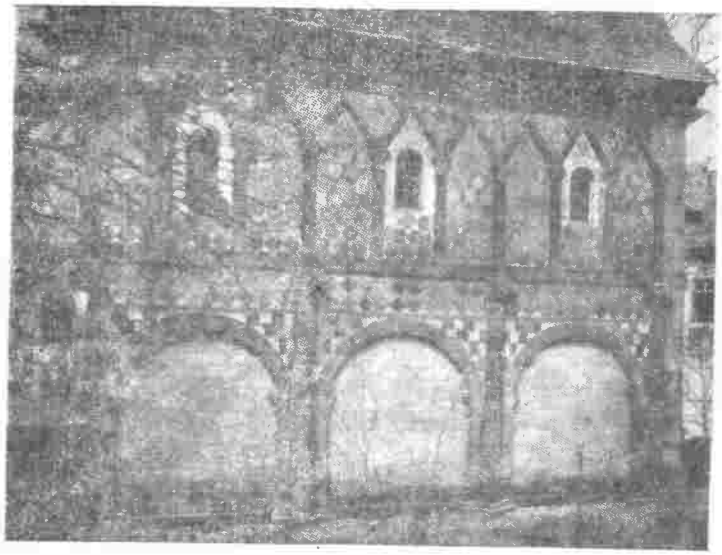

٤ — (ب) صورة تبين العمارة فى عهد الأسرة الكارولنجية

مائتى سنة ، ولم تبرحا تستغلان كل ما يلم بالإمبراطورية من أزمات لعبور النهر ، من أجل الإغارة والنهب . وتمكن الإمبراطور جوليان من إعادة الأمن إلى نصابه (٣٥٧ — ٣٦٠) وأجاز للساليين أن يمكثوا ببلاد البلجيك رعايا للإمبراطورية .

على أن الريبواريين دفعوا لفترة من الزمن إلى ما وراء الراين ؛ ولكن الضغط لم يفتر بل زاد شدة وبخاصة بمنطقة كولونيا ، وعلى الرغم من تحصين تلك المدنية العظيمة مرات عديدة ، فقد كان مصيرها محتوما . وانتقلت العاصمة الإدارية لغالة من تريف إلى آرل فى مطلع القرن الرابع ، على أن تريف تعرضت فى مدة عشرين عاماً لثلاث هجمات عنيفة .

البرابرة فى فرنسا وأسبانيا

ومع ذلك فإن هونوريوس جدد المعاهدة مع الفرنجة ، فأضحت غالة سنة ٤١٦ فى سلام من الناحية الرسمية . وبدا لروما فترة من الزمن أنها توصلت إلى حل مشكلتها وأن الجموع الغازية سيتم تمثلها بسلام فى الأقاليم الغربية . وقد استقرت فى فرنسا آنذاك ثلاثة شعوب بربرية (الفرنجة الساليون والبرجنديون والقوط الغربيون) ، كما استقر شعبان آخران بأسبانيا (الوندال والسويف) وسنتعقب بعد هذا هجرات الوندال حتى مستقراتهم بأسبانيا وما يليها (شمال إفريقيـة) .

وكان الوندال من الشعوب الجرمانية الشرقية وقد غادروا ساحل البلطيق فى وقت سابق على تحرك القوط ، ثم نجدهم عند حلول القرن الأول الميلادى نازلين بسيليزيا وبوهيميا . وترتب على الاضطرابات التى أثارتها حرب الماركومان (حوالى ١٦٦ م) ، أن تعرضت الأقوام للتفرق والتشتت ، فتحرك صوب

الجنوب إلى هنغاريا شعب الوندال الأسدنجيين ، الذى اشتق اسمه فيما يحتمل من اسم البيت المالك فيه . وبقى الوندال السيلنجيون بسيليزيا ، التى يظهر أن اسمها ليس إلا صيغة صقلبية للاسم القديم « سيلينجيا » ، وبعد مدة تقارب القرن ، هاجر عدد منهم إلى الحوض الأوسط لنهر المين . وأضعف الأسدنجيين فترة من الزمن ما وقع من صراع بينهم وبين القوط . ولما اكتشفوا حوالى عام ٤٠٠ أن الأرض التى يعيشون بها على نهر النيس تضيق بمعيشتهم ، غادرها جانب كبير منهم بقيادة ملكهم جوديجيل وانحازوا إلى الآلان (الذين هربوا غرباً فراراً من هجوم الهون) ثم عبروا الدانوب الأعلى . على أن مسيرهم توقف عند هذا الحد ، وظلوا يسكنون داخل الإمبراطورية مدة خمس سنوات بوصفهم جنداً مرتزقة (Foederati) . غير أن الدولة الرومانية اضطرت فى ٤٠٦ أن تجرد حدود الراين من الجيوش لمواجهة خطر ألاريك وقومه من القوط . وسرعان ما انتهز أعداؤها الفرصة على الفور . فإن الوندال الأسدنجيين والآلان ، عبروا النهر المتجمد (الراين) وقد زادت أعدادهم زيادة ضخمة بمن انضم إليهم من السويف والوندال السيلينجيين إلى آخر ليلة من السنة . وظلت جماعاتهم المتناثرة من الخيالة مدة سنتين تعمل التدمير فى الشطر الأعظم من فرنسا ، دون أن تلقى أية مقاومة منظمة ، على أن تولوز قاومت جميع هجماتهم بفضل أسقفها الذى دافع عنها باقتدار وكفاية . والشعر المعاصر لتلك الأحداث يعرض بالكلم صور ذلك الغزو . فإن مدناً حصينة تستسلم للسيف والنار : وتقع بأيدى البرابرة صياص[1] تجثم فوق صخرات وعرة وبيوت نساك قائمة بمفردها فى أكناف الغابات ، وكنائس تحرسها آثار القديسين

---

(١) الصيصة : الحصن والقلعة كما ورد فى القرآن الكريم (المترجم)

والشهداء . « لقد كانت بلاد الغالة تتصاعد إلى السماء دخاناً لحريق واحد متصل[1] » .

الوندال

بيد أن العاصفة أخذت فى الهدوء . ففى ربيع ٤٠٨ عبر الوندال وحلفاؤهم جبال البرانس وهبطوا أرض أسبانيا ، حيث واصلوا إفسادهم مدة سنتين أخريين . وعندئذ تدخلت روما ، وعقدت تسوية مؤقتة فى (٤١٠) ؛ وأُنزل الأسدنجيون والسويف بمقتضاها فى غاليسيا ، والسيلينجيون فى اندلوسيا ، على حين استقر الآلان فى البرتغال وشمال شرقى أسبانيا . ومع ذلك ، فإن روما لم تنس سياستها القديمة : « فرق تسد » ؛ فعمدت إلى استخدام خير ما جربته من وسائل التعامل مع أعدائها بأن عهدت فى ٤١٦ إلى « واليا » ملك القوط الغربيين بمهاجمة البرابرة بأسبانيا . وكانت ترجو من وراء ذلك إنقاص أعداد الطرفين . وقام واليا بمهمته بنجاح باهر محق به السيلينجيين من الوجود محقا ، واضطرت بقايا الآلان أن تندمج فى الوندال الأسدنجيين . وعندئذ اتبعت السياسة الرومانية سبيلها المألوف . فاستدعى القوط الغربيون من أسبانيا ، حيث اشتدت قوتهم أكثر مما ينبغى ، ومنحوا مستقرات فى أكيتانيا . ثم منحت الدولة عونها للسويف لمناهضة قوة الوندال والآلان المتزايدة ، فهزم الأخيرون ودفعوا إلى جنوب أسبانيا . وهنا جمعوا شتاتهم رغم ما حدث لهم وصدوا جند الرومان ، ولم تلبث المدن الساحلية القوية التحصين أن سقطت فى أيديهم الواحدة تلو الأخرى تحت ضربات هجماتهم من البر والبحر . ومما يدل على أن روما رأت بوضوح خطر قوة البرابرة البحرية ، ما بذلته

(1) Uno Fuma Vit Gallia tota rogo.

من محاولات للاحتفاظ بالسواحل الجنوبية لفرنسا وأسبانيا ؛ ومما له دلالته صدور قانون بالقسطنطينية حوالى ذلك العهد ينص على إنزال عقوبة الإعدام بكل شخص يُعلِّم البرابرة طريقة بناء السفن . غير أن الدولة الرومانية عجزت تماماً عن تجنب ذلك الخطر . فاستولى البرابرة على أشبيلية وقرطاجنة[1] ونهبوهما ، وعندئذ تطلعوا إلى مغامرة أعظم .

وفى (٤٢٨) أصبح جزريك (جايسريك) ملكا على الوندال. وهو من أعظم شخصيات ذلك الزمان ، ولا شك أنه كان سياسياً بارعاً فاق كل زعماء البرابرة باستثناء ثيودوريك وكلوڤيس ، فضلا عن كونه مقاتلا موفقا لا يجد الخوف إلى قلبه سبيلا . وهو الذى أدار دفة غزاة إفريقية ، والراجح أنه وزن العواقب وزنها الصحيح . فإن تلك البلاد كانت غير مستقرة الأحوال : إذ كان سكانها البربر (Moorish) فى ثورة ، وزاد الانشقاق الدوناتى الاضطراب شدة. ولم يكن لدى الكونت بونيفاس قائد الرومان قوة كافية من الجند ، والواقع أنه لم يكن قادراً على صد الغزاة . يضاف إلى ذلك أن من يسود إفريقية يمسك بيديه مفتاح إيطاليا . وتلك مسألة معترف بها من زمن بعيد ، إذ إن امتلاك تلك الأقاليم (الإفريقية) كان جزءاً جوهرياً من استراتيجية كل من قسبازيان وسيڤيروس من بعده . وأصيبت روما بخسارة فادحة لما ترتب على فتح جزريك من ضياع الجزية التى تؤديها لها إفريقية ، وأشد من ذلك خطورة أن موارد قمحها أصبحت وقتذاك تحت رحمة ذلك البربرى . وبنمو قوة الوندال البحرية لم يعد الأمر قاصراً فحسب على عجز الجيوش الإمبراطورية عن بلوغ إفريقية ، بل إن جميع الموانى وجميع تجارة غرب البحر المتوسط ، أصبحت معرضة لانتهاب القراصنة ، على حين أن قوات الوندال ربما هبطت فجأة بأية نقطة بإيطاليا أو صقلية .

---

(١) قرطاجنة هذه مدينة أسبانية وهى غير قرطاجة الموجودة بتونس . (المترجم)

وفى عام (٤٢٩) قاد جزريك قومه ، وعددهم حوالى ثمانين ألفا ، عبر مضيق جبل طارق . فبادر إلى اجتياح السهول الغنية والاستيلاء عليها ، غير أنه لم يتمكن من فتح قرطاجة وبعض معاقل أخرى . وعززت القوات الرومانية ، فأنزلت بجزريك هزائم فادحة فعقد مع الرومان معاهدة ، استقر بمقتضاها الوندال هناك بصفة جند مرتزقة محالفين . ومن الجلى أن تلك الحركة قد تمت بتقدير محكم . فلم تمض أربع سنوات حتى استولى جزريك فجأة على قرطاجة . ولمنع الرومان من الإقدام على هجوم مضاد ، أرسل عمارة بحرية قوية لإعمال الدمار فى صقلية وسردينية (اللتين كانتا تعتبران آنذاك المصدر الرئيسى لمؤونة الرومان) . وفى (٤٤٢) ، اضطرت روما أن تعترف بجزريك حاكماً مستقلا للشطر الأكبر من الأقاليم الإفريقية ، وكان ذلك هو الثمن الذى دفعته فى مقابل السلام . وبذلك صار وضعه مختلفاً تماماً عن وضع ملوك القوط والبرجنديين ، الذين كانوا لا يزالون رعايا للإمبراطورية الرومانية .

الهون

ويحدث بين الفينة والفينة فى التاريخ الأوربى أن تُفتح نافذة على مصراعيها بغتة فنطل منها على إقليم مجهول من سهوب مترامية ، أو صحراوات من حصباء أو رمال أو مناطق من الحجر الأسود البراق أو مراعٍ فوق الجبال الشامخة . وتتحرك فوق سطحها ثلل صغيرة من الراكبة ، وهى تسوق أمامها قطعانا من الشاه وأراعيل من الخيل . فإذا حل الصيف وجدتهم بعاداً فى أقصى الشمال ينتجعون السهول العظيمة التى تمتد حتى غابات الصنوبر السيبيرية . فإذا اقترب الخريف قوضت الخيام وحملت وانطلقت المخيمات المكونة من خمس أو ست عائلات فى طريقها نحو الجنوب ، وهى تخترق على التعاقب سهوب الطفل

العظيمة والسهوب الملحة وصحراوات الحصباء ، وفيافى الرمال المتنقلة ، حتى يصل القوم إلى حوضى بحر قزوين وبحر آرال . وبعض هـذه القبائل تجتاز حوالى عشر درجات من خطوط العرض فى كل عام ، وهى مسافة قد تصل إلى ألف ميل ذهابا ومثلها إيابا . والرحلة ضرورية ، إذ إن السهل الشمالى يغطيه فى الشتاء طبقة سميكة من الثلج ، فإذا حل الصيف جففت حرارته كل ما فى الجنوب من كلأ . وقد أفضى قيام هذه الظروف على كر القرون إلى نشوء الثقافة البدوية (الترحلية) . ولـكى يتم بسرعة قطع مسافات مترامية من الأراضى الصحراوية ، رُبِّى جنس من الخيـل يستطيع العدْوَ عشرين ميلا فى الدفعة الواحدة ، وأن يقطع فى اليوم الواحد أكثر من مائة ميل . ويقضى الرجال حياتهم على ظهور الجياد . فتنحرف أقدامهم إلى الخارج ، ولا تصيب (سمّانة) الساق إلا حظاً ضئيلا من النمو . وهم قوم من العنصر المغولى مكتنزو الأجسام كبار الرءوس قمحيو اللون عيونهم مشقوقة وأفواههم كبيرة وشعرهم أسود صلب ، ولا يمكن استخدام الثيران هنا — إذ إنها لا بد أن تهلك فى الصحراء ، وذلك فضلا عن شدة بطئها . ولا تنس أيضاً أنه يستحيل على البدوى الحق ، أن يمارس الزراعة . إذ إن طعامه الأساسى هو لبن الأفراس والأغنام بعد تجهيزه بطرائق شتى . وشهوته للطعام هائلة ؛ ولـكنه فى بعض الأحوال يستطيع تحمل العطش أياماً والجوع أسابيع . وهذا أمر يتمشى مع ظروف حياته ، التى تكاد تبلغ حد المجاعة شتاء والوفرة التى لا حد لها صيفا . والمخيم هو وحدته الاجتماعية : إذ إن أراضى الرعى والآبار لا تـكفل العيش لمـا يزيد على ذلك ، ولـكن المخيّم جزء من العشيرة ، والعشيرة جزء من القبيلة والقبيلة جزء من الشعب . وقد تظهر الأيام فى بعض الأحيان (خاناً) عظيما يلم شمل الشعوب فى رهط حاشد : فإن كان الرهط أضعف من الأرهاط المجاورة له ،

دُفع من منطقة السهوب فيهبط على فارس وأرمينية وجنوب روسية أو هنغاريا. وربما تفرق شمل الرهط عند وفاة «الخان» ؛ أو تظل الشعوب المكونة له تنزل الظلم مدة قرون بالعنصر المغلوب على أمره ، بأن يعودوا كل شتاء للمطالبة بالمؤن والنساء . فتنحط الحضارة بتلك المناطق ، ويصبح السكان خونة أذلاء. على أن الغزاة لا يلبثون حتى يتحولوا رويداً رويدا إلى جنس مختلط ، وحتى يفقدوا إلى حد ما خصائصهم المغولية . وهذا ما حدث مع الإسكيذيين الذين عرفهم القدماء ومع المجريين فى عصرنا هذا .

وغنى عن البيان أن غزوات هـذه الشعوب الألطائية تختلف اختلافاً بعيداً عن الهجرات الجرمانية . إذ إن التيوتونى والرومانى جميعاً كانوا ينظرون إلى الهون نظرة الرعب المشوب بالخرافات ويحسون نحوهم بنفور وتقزز . ونظراً لمـا اشتهر به الهون من السرعة الخارقة ، نسبت إليهم قدرات سحرية ، وبولغ فى عدد أفرادهم مبالغة عظيمة . والواقع أن الجزء الأعظم من مقاتلة الهون كان يتكون من أفراد القبائل المهزومة ، ولا سيما الجيبيد ومن معهم من الآلان والقوط والصقالبة وغيرهم ، الذين جرهم الهون معهم فى أثناء تقدمهم من جنوب روسية إلى أوربا الوسطى[1] . واتخذ الهون مركز قيادتهم فى هنغاريا ؛ فإن أتيلا ، الذى ورث الحكم فى (٤٣٣) مع أخيه بليدا ، الذى يظهر أنه أهمله آخر الأمر ، ـ كان يفرض سلطاناً قوياً وغير محدود ، ولكنه فعال على كل من القوط الشرقيين والصقالبة المقيمين بجنوب روسية وسائر القبائل الجرمانية النازلة على ضفاف الدانوب . واستطاع من موقعه المتوسط أن يهدد شطرى الإمبراطورية بدرجة سواء ، فدأب على المطالبة بعودة اللاجئين،

---

(١) انظر أول الفصل الثانى ص ٧٠ .

وعلى أن ينتزع من الإمبراطورية إتاوة ضخمة من الذهب . وإذ انصرف فى السنوات الستة الأولى من حكمه إلى الفتوح الصقلبية فإنه امتنع عن الهجوم الصريح على الغرب ، حتى لقد حدث أنه أعار الرومان جنداً مرتزقة من الهون ليقاتلوا عنهم البرجنديين والقوط الغربيين ؛ وفى الحين نفسه استطاع أن يفرض على القسطنطينية معاهدة كلها مذلة وهوان . غير أن العلاقات ازدادت سوءاً بعد (٤٤٠) وشابها شىء من العداوة ؛ وعندئذ هوجمت حدود الدانوب وتعرض شمال بلاد اليونان للنهب الشديد . ولما عقد الصلح فى (٤٤٧) طولبت الدولة بتعويضات ضخمة وتقرر جعل الحد الفاصل بين الطرفين عند نيش ، التى تقع على مسافة بعيدة ، جنوب الدانوب .

ثم حدث تغير فى (٤٥٠) . إذ تولى الإمبراطورية فى الشرق مرقيان ، وأبى أن يدفع للهون بعد ذلك أية جزية . ولم يلبث الغرب أن حذا حذوه . ويبدو أن أتيلا عزم فى تلك اللحظة على أن يقوم بفتح حاسم . فشق طريقه عنوة عند نهر الراين الأدنى فى عيد الفصح من عام (٤٥١) وتقدم إلى أورليان . وكان يأمل أن يلزم القوط الغربيون فى أكيتانيا الحياد . ولكنهم قرروا أن يقاتلوا فى صف روما ، فأدى ذلك إلى قلب ميزان المعركة . والتحم الطرفان فى سهل موريك قرب تروى (Troyes) . فلقى ملك القوط الغربيين مصرعه ، ثم اضطر أتيلا إلى الارتداد فى النهاية إلى معسكره بعد أن تكبد الطرفان خسائر فادحة ، وبذلك انتهت الأسطورة التى تزعم أن الهون قوم لا يقهرون . على أن آئتيوس قائد الرومان أدرك وقتذاك أن القوط الغربيين أشد خطراً على الإمبراطورية من الهون ، وعندئذ أتاح للهون فرصة للنجاة .

وكثيراً ما اعتبر ذلك القتال من المعارك الفاصلة فى التاريخ ؛ ولكن الراجح أن جيش الهون كان على كل حال محتوماً عليه التشتت السريع عند وفاة حاكمه وقائده . والواقع أن جغرافية أوربا ، لا العوامل السياسية ولا العسكرية هى التى أنقذتها من قبضة الحضارة البدوية ، هنا وفى سائر المعارك الأخرى ، ودفعت عنها المصير الذى تعرضت له آسيا ، التى ظلت إلى يومنا هذا غارقة فى الهمجية . « فلو أن ألمانيا أو فرنسا كان بها من السهوب ما لهنغاريا ، حيث كان المترحلون يستطيعون منها تزويد أنفسهم بما يلزمهم من طعام ، ثم ينطلقون من ثم إلى ما هم عليه من تدمير ، فالراجح أن ضياء الحضارة الغربية ما كان إلا ليخبو من زمن بعيد ، كما أن العالم القديم لم يكن بد من أن يتبربر ، ولم يكن بد للصين الراكدة الآجنة اليوم من أن تكون على مفرق الحضارة » . (بايسكر Peisker) .

نهاية إمبراطورية أتيلا

تراجع أتيلا عند ذاك إلى هنغاريا ، ثم عاد فى السنة التالية فغزا شمال إيطاليا ، فسقطت أمام هجماته أكويليا ومعظم القلاع الأخرى (وإن لم تسقط راقنا بفضل المستنقعات التى كفلت لها الأمن) . ولكن زحفه على روما لم يتم . ذلك أن انتشار المجاعة والمرض بين جنده ووصول الإمدادات الإمبراطورية من الشرق ، كانت أموراً عززت بقوتها البراهين والحجج التى قدمتها بين يديه بمسكره على نهر منكيو سفارة الرومان برئاسة البابا ليو الأول بجلاله وقوة أثره . وعاد أتيلا إلى وطنه ليتجهز لقتال القسطنطينية ؛ ولكنه مات فى السنة التالية .

واقتسم أبناؤه ميراثه ؛ ولكن شعوب الدانوب فطنوا إلى الفرصة

السانحة لهم وانقضوا كالذئاب الضارية على سادتهم المكروهين . وتزعم الچيپيد سائر قبائل القوط : الروچيين (Rugii) والسويف والهيرول ، فأنزلوا بالهون هزيمة ساحقة على نهر نيداو (٤٥٣) وطردوهم إلى سهول الروسيا ، ولم يبق منهم بهنغاريا سوى شراذم متناثرة . وظلت منطقة الدانوب بعد ذلك مائة عام مسرحاً لدوامة دوارة من الشعوب المتصارعة ، وكانت دبلوماسية الدولة الرومانية الشرقية تشجع النزاع ، بما نهجته من خطط تقليدية تجاه البرابرة . وعندئذ سيطر الچيپيد وهم من شعوب الچرمان الشرقيين على هنغاريا ورومانيا ، وتنازعوا مع القوط الشرقيين النازلين آنذاك فى غربهم على امتلاك مدينة سيرميوم (وهى لا تبعد كثيراً عن بلغراد) التى كانت تتحكم فى الطريق الرومانى العظيم الممتد من الغرب إلى الشرق . ويظهر أن الچيپيد بلغوا مرادهم عند وفاة ثيودوريك العظيم فى (٥٢٦) ؛ ولكن ظهر فى ذلك الوقت مُطالبون جدد بالسيادة هم اللومبارد ، فغير موقف الدانوب بأجمعه . فتألف تحالف بين الچيپيد واللومبارد ، ولكن المصالح المتضاربة كانت أقوى من كل شىء . ونشبت بين الفريقين حروب مريرة طويلة الأمد ، انتهت فى (٥٦٧) بهزيمة الچيپيد نهائياً ، فلم يلعبوا بعد ذلك دوراً فى التاريخ .

القوط الشرقيون

وكانت الأراضى الممتدة شمال البحر الأسود بين نهر الدنيستر غرباً ونهر الدون شرقاً (أى بين منازل القوط الغربيين ومنازل الآلان) يحتلها فى قريب من (٣٥٠) القوط الشرقيون المعروفون بشدة المراس بقيادة ملكهم إرماناريك ، الذى لم تكن له إلا سيادة ضعيفة على قبائل الصقالبة النازلة إلى الشمال منهم . وقضى الغزو الهونى على تلك الإمبراطورية ، ودفع القوط غرباً ،

فساروا ثللا من اللاجئين إلى البلقان . على أن كثيراً من القوط الشرقيين لم يلبثوا بعد وقفة غير موفقة لهم على نهر الدنيستر ، أن انحازوا إلى أقاربهم القوط الغربيين فعبروا جميعاً نهر الدانوب[١] ، وأسهموا فى القتال الذى نشب فى أدرنه (٣٧٨) . وفى (٣٨٠) عقدوا حلفاً مع ثيودوسيوس الأول ، ومنحوا مستقرات بهنغاريا الدنيا . ومع أنهم لم يزالوا تحت سيطرة الهون الذين كانوا بسطوا سلطانهم على هنغاريا ، فإنهم باتوا الآن متحدين تحت ملك واحد ، ثم تحت حكم أبنائه الثلاثة من بعده ، ولم يشذ عن ذلك إلا جماعات متناثرة دخلت فى خدمة الرومان ، أو أولئك الذين انحازوا إلى الجيوش المختلطة التى فى خدمة راداجايسوس والتى شنت هجوماً مباغتاً وخطيراً على إيطاليا (٤٠٤ — ٤٠٥) فسحقهم استيليكو على مرتفعات فيسولى . وقد كانوا بوصفهم حلفاء تابعين يقاتلون مع أتيلا عند سهل موريك ، ولكنهم لعبوا دوراً بارزاً فى ائتلاف الشعوب الذى قضى على الهون بعد وفاة أتيلا ، وازدادوا صلابة وصمودا فيما تلا ذلك من حروب مع قبائل الدانوب . وفى (٤٧١) أصبح ثيودوريك الملقب فيما بعد بالعظيم — من زعمائهم . والمعروف أن ثيودوريك قضى عشر سنوات من حياته وهو صبى رهينة بالقسطنطينية ، ولا بد أنه قد تعلم الشىء الكثير عن تنظيم الدول المتحضرة ، شأن ألاريك (الذى تماثل حياتُه حياتَه من كثير من الأوجه) ، وإن ظل حتى نهاية أيامه أميًّا لا يكتب ، فإذا شاء التوقيع باسمه اضطر إلى استخدام روسم[٢] من ذهب .

وبعد أن استنفد قومه كل موارد بانونيا تحركوا حوالى ذلك الزمن

---

(١) انظر ف ٢ بعنوان "القوط الغربيون ص ٨٤ . .

(٢) الروسم لوحة مثقبة الحروف المطلوبة لكتابة الاسم . (المترجم)

إلى جوار سالونيكا ، ومن هناك ظلوا يمارسون ضغطاً مستمراً على العاصمة (القسطنطينية) . وشهدت السنوات العشر التالية صراعاً ثلاثياً مستمراً بين الإمبراطور زينون وبين ثيودوريك وبين ثيودوريك آخر لُقب استرابون (وهو أيضاً قوطى شرقى) كان قائداً لكتيبة من بنى قومه تعمل فى خدمة الرومان. وكانت سياسة الإمبراطور تأليب ثيودوريك هذا على سميه ؛ ولكن عند وفاة ثيودوريك استرابون فى (٤٨١) ، لم يكن بد من البحث عن وسيلة أخرى لتخليص القسطنطينية من المعونات المالية الفادحة التى لا بد لها من أدائها . وقد حكم أودواكر[1] إيطاليا منذ (٤٧٦) ولكن زينون لم يعترف به إلا اعترافاً شكليا ، وظل يترقب سنوح فرصة يسترد بها سيطرته على الغرب . ولسنا نخال بعد الذى خبره زينون من ثيودوريك ، أنه توسم فيه أن يكون أطوع كنائب ملك من أودواكر ؛ على أنه جعل الاعتبار الأول تخليص إليريا من ذلك الكابوس الساحق ، فقدر أنه إذا دمر كل من أودواكر وثيودوريك أخاه ، كان فى ذلك الخير كل الخير .

وتقبل ثيودوريك المهمة المنوطة به وانطلق إلى إيطاليا فى (٤٨٨) سيداً لجند الإمبراطور ، يقود جيشاً مخلطا من القوط الشرقيين ومن غيرهم من المغامرين . والتحم الطرفان فى المعركة الفاصلة على نهر أدًا فى أغسطس (٤٩٠) فهزم أودواكر هزيمة منكرة فبادر بالالتجاء إلى راڤنا المنيعة . وعند ذلك قرر مجلس السناتو الرومانى أن يؤيد ثيودوريك ، واعترف به حاكماً على إيطاليا. وكانت هناك عدة مدن لا تزال تناصر أودواكر وتسانده ، فنجح ثيودوريك فى استثارة السكان الرومان للقيام بمذبحة شاملة فى حامياتها البربرية . وفى تلك

---

(١) انظر الفصل الثالث بعنوان : « القرن الخامس فى الغرب » ص ١٠٤ .

الأثناء كان الوندال أيضاً يعيثون فى صقلية فسادا وتدميرا ، وبعد قتال مرير أجبروا على التخلى عن مطالبهم فى الجزيرة . ولكن كان هناك فى النهاية شخص أودواكر وله وزنه الذى لا بد للقوم أن يحسبوا حسابه . واستهل ثيودوريك آخر مرحلة من فتوحه عندما بدأ حصار راڤنا الذى دام ثلاث سنوات .

وقد تأثر خيال الجرمان بهذه المدينة العجيبة ، إذ تشيد بذكراها حلقات المجموعة الملحمية العظيمة التى تدور حول ثيودوريك . ولم تكن راڤنا حتى الأمس القريب إلا مدينة خربة خيم عليها الصمت، وكانت تتألف من مجموعة من أبراج الأجراس تقع فى سهل وخم موحل من المستنقعات الوبيئة بالملاريا وحقول الذرة التى تخترقها القنوات البطيئة التى كاد يسدها القصب (البوص) وأزهار النيلوفر المائية . وهى لا تزال تحتفظ إلى اليوم بشىء من مجدها السابق . فإن كنيسة القديس ڤيتالى — وهى أفخم كنائسها — المتوهجة بالفسيفساء المرصعة بالجوهر والرخام الشفاف ، إنما ترجع إلى عهد جستنيان يوم ارتقت راڤنا ذروة جمالها . ومع ذلك فإن صيتها ذاع طوال أربعة قرون باعتبارها مقراً لقيادة أسطول رومانى . لقد كانت مياه الأدرياتى تتخللها وكانت معابدها ومخازنها تقوم على جزر تحيط بها القنوات شأن البندقية اليوم . وانحسر البحر عنها شيئا فشيئا ، ولكن المدينة لم تكن فى تلك الأيام متصلة بإيطاليا نفسها إلا بطريق مكون من جسر طويل يخترق المستنقعات ويمضى إلى داخل المدينة نفسها فيقود المسافر إلى معاقل مرفأ كلاسيس البحرى ومنارته . وقد ظلت المدينة زهاء قرن مستقراً ومقاماً للإمبراطور وحاشيته . فأقام بها هونوريوس وڤالنتنيان الثالث الإمبراطوران الوانيان اللذان لم يكونا سوى أطياف ظلال . وقضيا

فيها حياتهما الوادعة ، بين مؤامرات النساء والخصيان والقساوسة ورجال البلاط ، بعيداً عن مثار النقع ودوى الضجيج فى عالم متقلب متغير ، عالم قاد فيه استيليكو وآئتيوس آخر كتائب الرومان على المغيرين .

وهنا فى بناء صغير بشكل الصليب تأتلق على جدرانه وسقفه نجوم من الذهب مرصعة فوق خلفية لا زوردية داكنة ، يرقد «الناووس» الضخم الذى يضم رفات جالا پلاسيديا . وهذه الأميرة الرومانية التى كانت حياتها مرآة تعكس تاريخ زمانها ، هى ابنة ثيودوسيوس الأعظم وشقيقة أركاديوس وهونوريوس إمبراطورا الشرق والغرب . وقد أخذت أسيرة يوم نهبت روما ، وأصبحت زوجاً لأتولف ملك القوط الغربيين ، ثم صحبته إلى فرنسا وأسبانيا . ثم تزوجت بعد ذلك قسطنطيوس القائد الرومانى ، وبعد وفاته ووفاة أخيها هونوريوس أصبحت الحاكم الفعلى للغرب مدة خمس وعشرين سنة فى أثناء الوصاية على ابنها الصغير المتأنث فالنتنيان الثالث فضلا عن مدة حكمه الضعيف . وإن جمالها الذائع الصيت ، وتقلبات الحظ بها ، صورة تشتبك اشتباكاً عجيبا بمصائر أوربا الغربية ، لتجتمع لتجعل منها أشد شخصيات ذلك القرن رومانسية . بيد أن لها ناحية أخرى لا تقل دلالة على الزمان . فبتأثيرها ، أصبح جو البلاط كثيفاً بما انعقد فيه من سحب بخور التصوف الدينى . ولعل ميادين المعارك الدائرة على الحدود ليست هى الموضع الذى نلمس فيه ما حفلت به هذه الفترة الغامضة من التاريخ من أطياف معتمة ، بل فى ظلام مقبرة جالا پلاسيديا . ذلك بأن دوافع تلكم الأطياف ستظل سراً دفيناً إلى الأبد ؛ غير أن بصيصاً من الفهم قد يطرق على الفجاءة أبصارنا عندما تقع على الرموز السرية والأشكال المقدسة للحمام والغزلان والشاء والعيون والأزاهير والكروم المنضفرة المتشابكة

بعضها فى بعض ، والإنجيليين والقديسين ، التى تلمع وسط الظلماء وتتكهن بسعادة غير دنيوية .

وكانت راڤنا آنذاك تحتفظ بأسرارها كشأنها اليوم . ولما لم يستطع ثيودوريك اختراق الحصون ، تفاهم مع أودواكر . واتفقا على شروط الصلح. وبمقتضاه أصبحا شريكين فى الحكم فى إيطاليا معاً بدرجة متساوية . ويبدو أن الأول منهما (ثيودوريك) كان يضمر فى نفسه الغدر . فبعد دخوله بعشرة أيام دعا أودواكر إلى وليمة . وبينما هما مستويان إلى المائدة ، ركع رجلان بمظلمة أمام أودواكر وأمسكا بيديه . فاندفع جند ثيودوريك المختبئون ، ولكنهم ترددوا فى القضاء على الرجل الشيخ . فتقدم ثيودوريك بنفسه وشهر سيفه . وصاح أودواكر قائلا : « أين الله ؟ » فقال ثيودوريك : « أنت فعلت هذا بأصدقائى » ، ثم شقه بسيفه من الترقوة إلى القطن . ودهش ثيودوريك للضربة التى صدرت منه فصاح قائلا : « ليس للشق عظام فى جسده » . وكانت الأوامر صدرت قبل ذلك بإعمال الذبح فى المرتزقة الأعداء ، ومن بعدها لم يلق ثيودوريك أية مقاومة لادعائه السيادة العليا بإيطاليا .

الفصل الثالث

التقاء الحضارتين

القرن الخامس فى الغرب

عالج الفصلان السابقان عالم الرومان وعالم البرابرة فى (٣٩٥) . وكان لزاماً علينا تسلف الحوادث بترسم خطى الشعوب البربرية الرئيسية كلا على حدة بقدر الإمكان . فماذا كانت نتيجة الصدام بين التقاء الحضارتين الرومانية والجرمانية ، كما يتجلى فى التاريخ المضطرب فى القرن الخامس ؟ ولعل الأفضل أن تسمى العمليـة باسم عملية التعجيل بتطور تدريجى ؛ إذ لا بد لنا من تذكر أن سكان شطر عظيم من الإمبراطورية كانوا بالفعل برابرة ، وأن العنصر الجرمانى قد غلب على الجيش الرومانى ، وأنه لم يكن بين زعماء المغيرين باستثناء جزريك (جايسريك) فيما يحتمل ، من كان يريد للإمبراطورية السقوط .

ومن المستحيل أن ندلى بتفسـير سيكولوجى لتصرفات الشخصيات الرومانية الرئيسية فى هذه الفترة ؛ إذ كان الدخول محظوراً إلى بلاطات راڤنا والقسطنطينية ، حيث كان يتربع ابنا ثيودوسيوس الإمبراطور المقاتل ، على عرشيهما كأنهما أميران شرقيان محلّيان بالجواهر فى غرفات مقدسـة عليها حُرّاس حِراس يحمونها من العالم الخارجى . والحق إن « هذين الأميرين الصغيرين المسكينين ، وهما زهرتان شاحبتان من زهرات الشباب » ، كما يقول دوكين (Duchesne) لم يكونا إلا مركزاً للمؤامرات العديدة التى

كانت تحاك فى البلاط ؛ ولكن معرفتنا بهذه المؤامرات لا تزيد عن هذا بكثير . وكان أقرب الناس إلى الإمبراطور هو كبير الأمناء (الحجاب) ، وهو خصى ، بيده إدارة القصر الإمبراطورى ، وكان بما يلجأ إليه من توسيع مجال عمله وإدارته يزيد فى الحكم الشخصى للإمبراطور على حساب الإدارات الكبرى فى الدولة . ولكن حدث فى الغرب أن أصحاب الأملاك الإقطاعيين بفرنسا وإيطاليا بلغوا من القوة والنفوذ ما جعل الحكومة المركزية تعجز عن التغلب عليهم ؛ فأما فى الشرق فإن رؤساء الإدارة الحكومية ، ومعظمهم من أصل وضيع — لم يظهروا إلا مقاومة ضئيلة لاستبداد الملكية البيزنطية ، فصار لكبير الأمناء (الحجاب) صاحب القوة المطلقة مثل يوتروپيوس ، الحرية فى أن يختار زوجة للإمبراطور أو أن يتآمر مع القادة الخونة . ومع ذلك فإن رجال البلاط والموظفين بكل من القصرين كانوا يؤلفون حزباً قوياً يدعو فى بعض الأحوال بأعلى صوت إلى اتخاذ التدابير لمناهضة الجرمان . وكان لنساء القصر دور عظيم — ولكنه لم يبلغ من الضخامة المنزلة التى صورها خيال وعاطفة المؤرخين البيزنطيين الذين أرادوا أن يحملونا على تصديقه — فكثيراً ما كن يتحكمن فى ضعاف الأباطرة بنفس الطريقة التى كان يتحكم بها فيهن مستشاروهن الروحيون . والجو كله مفعم بالشبهات والبحث عن المصالح الذاتية . والجواسيس منبثون فى كل مكان وذوو الحظوة يرتفعون ويسقطون . ولا يتبدى فى الجو تمسك بأى مبدأ خلقى ، ولا طمأنينة لأية صداقة .

وتقف قبالة هاته الخلفية طائفة من الشخصيات العظيمة ، هى شخصيات « سادة الجند » فى القرن الخامس . وفى أيديهم السلطة الحقيقية ، إذ تعتمد

مصائرهم الإمبراطورية على الجيش الذى يخضع لسلطانهم . ولما كان معظمهم من البرابرة ، فلم يكن فى إمكانهم ، شأن القواد فى القرن الثالث ، خلع الإمبراطور والاتشاح بالأرجوان . كانوا موضع الكراهية والخوف من الأباطرة والحزب المناهض للجرمان، على أنهم كانوا سنداً لا يستغنى عنه وقوة بالغة القدرة. وكثيراً ما كان هذا البغض يتغلب على سائر الاعتبارات الأخرى . إذ إن هونوريوس يأمر بإعدام استيليكو (٤٠٨) ويقضى ثالنتيان الثالث على آئتيوس (٤٥٤) ولا يلبث حتى يلقى نفس المصير بعد ذلك بقليل . وفى المرحلة التالية يكون المتصرف فى الشئون هو « سيد الجند » ريكيمر (المتوفى ٤٧٢) ، فهو الذى يقيم أباطرة ضعافاً فيقتلهم أو يخلعهم إذا أظهروا نفاراً ومغالاة فى الاستقلال. وأخيراً يتخلص أودواكر من الإمبراطور (٤٧٦) ويحكم إيطاليا حكماً شخصياً كنائب ملك بالاسم للسلطة الحاكمة بالقسطنطينية .

القرن الخامس فى الغرب

ظل نجم استيليكو متربعاً فى كبد السماء من (٣٩٥) إلى وفاته فى (٤٠٨) . وقد ظل يتهم على الدوام بالخيانة ؛ وليس عسيراً علينا أن نرى أسباب تلك الاتهامات . فإنه سمح لألاريك عدة مرات بالانسحاب ، وذلك ببلاد اليونان (٣٩٧) وبإيطاليا (٤٠٣) على حين أنه كان بوسعه على وجه التحقيق أن يدمر قواته ويقضى عليها ، وبذا حال دون سقوط روما فى (٤١٠) . يضاف إلى ذلك أنه لم ينقذ غالة من الغزو الرهيب فى (٤٠٦) ، وهو موقف ترك ولايتين فريسة لتدميرات الوندال وحلفائهم . ويبدو أنه كان يدير سياسته على ثلاثة أسس . فإنه كان الذراع اليمنى لثيودوسيوس ، حتى لقد عين وصياً على ابنيه الصغيرين فى (٣٩٥) .وكان الولاء الشخصى من خصائص الجرمان ، ولم يداخل التردد

قط قلب استيليكو فى ولائه لبيت ثيودوسيوس . أجل إنه ربما استخدم جميع الوسائل ليبز أركاديوس ويعلو عليه ، ولكن شخص الإمبراطور لم يتعرض لأدنى خطر . ومن الحقائق الجديرة بالذكر أن استيليكو لم يأذن بقيام أية مقاومة عندما أصدر هونوريوس أمره بإعدامه . وكان الأساس الثانى لسياسته ، وهو الأساس الذى لعله قد تبناه مؤخراً عندما حطم الانتقاض على الجرمان فى القسطنطينية آماله ، هو عقده العزم على الحصول لنفسه على الولاية (Prefecture) على إليريا[١] — (وهى بلد حافل بالرجال اللازمين للجندية لا يُقوَم بثمن) — لضمها إلى الجزء الغربى من الإمبراطورية . ولكى يبلغ هذا الهدف عمد إلى استخدام قوات ألاريك ؛ وكانت نتيجة محاولته فى هذا الصدد أن أعلنت حكومة أركاديوس أنه عدو للشعب : ومن أجلها ضحى بغالة وتركها فريسة للهجوم البربرى الذى كان واجبه يحتم القضاء عليه . وقد فرض الأساس الثالث عليه فرضاً لا لشىء إلا لكونه بربريا . وطبيعى أن النمو السريع للنفوذ الجرمانى فى أروقة الجهات العليا كان يحظى باستحسانه ؛ منذ كان للجرمانى الحق فى الحصول على نفس المكانة التى يرقى إليها الرومانى داخل الإمبراطورية . وربما كان فى هذا تعليل لرأيه فى ألاريك ، واعتباره إياه حليفاً نافعاً ، لا عدواً عاما ؛ ومن المحقق أن ذلك الأساس هو الذى دفعه إلى تأييد جائناس والحزب الجرمانى بالقسطنطينية ؛ كما أنه يفسر تماماً عداوة المحافظين الرومان ، التى أوردته حتفه آخر الأمر .

وشهدت المدة التالية (٤٠٨ — ٤٢٣) تأسيس مستوطنات البرابرة المحالفين بكل من غالة وأسبانيا ، ويرجع الفضل فى إدارة دفة هذه الحركات[٢]

---

(١) انظر التذييل .

(٢) انظر : « البرابرة فى فرنسا وأسبانيا » من الفصل الثانى .

بمهارة إلى قسطنطيوس « سيد الجند » الرومانى الذى تزوج من جالا بلاسيديا فى (٤١٧) ، فولد له منها ڤالنتنيان الثالث . وجهوده بإقليم غالة تعتبر فى الدرجة الأولى من الأهمية . فإن ما تفخر به فرنسا اليوم من أنها قطر لاتينى ينبغى أن ينسب جزئياً إليه ، فهو صاحب الفضل فى تمكين البرابرة من الاستقرار بدرجة نسبية من السلام بالأراضى الرومانية ، حيث تشربوا قوانين السكان ونظمهم . واتخذت ترتيبات عسكرية جديدة بشمال غربى غالة ، وهيأ إنشاء مجلس الأقاليم السبعة فرصة طيبة لإقامة بؤرة للنفوذ الرومانى ، وكان ذلك المجلس يعقد فى آرل كل عام ، ويحضره ممثلون عن كل من المنطقتين الرومانية والقوطية الغربية .

وتوفى قسطنطيوس فى (٤٢١) ، ومات الإمبراطور هونوريوس فى (٤٢٣) . على أن ظلا قوياً لآئتيوس « آخر الرومان » قد خيم على الثلاثين سنة التالية (٤٢٣ — ٤٥٣) . وهذا اللقب يبرره ما كان له من الشخصية وما قام به من أعمال . غير أنه دأب على معارضة « الحزب الرومانى » براقنا ؛ كما أنه نصب نفسه عدواً لجالا بلاسيديا والقائدين المنافسين له ، فيليكس وبونيفاس ، ولم يكن ذلك إلا بفضل مساعدة مرتزقته من الهون . وقد ركز كل اهتمامه على غالة ؛ ولما حاول القوط الغربيون بسط نفوذهم إلى إقليم پروڤانس ردهم على أعقابهم ؛ أما مملكة البرجنديين بورمس التى كانت تغير على جيرانها للنهب فقد أزالها من الوجود (٤٣٦) بفضل جند الهون المرتزقة . (وكان واضعو ملحمة نيبيلونجنليد[1] « Nibelunge nlied » الجرمانية يعتقدون أن ذلك كان من عمل آتيلا — ما لم يكن « إتزل » تركيبا

(١) قصيدة جرمانية عن القرون الوسطى كونت من مصادر أقدم منها وتتحدث عن ملوك ورمس وما حولها وعلاقاتهم بآتيلا . (المترجم)

مزجياً لاسمى آتيلا وآئتيوس) ، ومن ثم أقامت البقية الباقية منهم بإقليم ساڤويا . ومن سخريات القدر ، أن آئتيوس هو الذى التقى بغزوة آتيلا فى (٤٥١) ، وتمكن بمساعدة القوط الغربيين من تحويل وجهتها ثانية إلى وادى المورياك — وبعد ثلاث سنوات طعنه ڤالنتنيان الثالث فى قاعة المجلس . ثم تم القضاء على بيت ثيودوسيوس بمقتل ڤالنتيان نفسه فى السنة التالية .

والآن بلغت الأمور آخر مداها . فجلس على العرش فى مدى عشرين عاماً ما لا يقل عن تسعة أباطرة ضعاف ، ينصبهم ويخلعهم « سادة الجند »(*) ريكيمر وخلفاؤه . فيهاجم الوندال إيطاليا دون أن يمسهم قصاص ، ويستولون على روما نفسها ويطلقون فيها أيديهم انتهاباً . ويضمحل كل أثر لسلطات الرومان فى غالة وأسبانيا بعد اغتيال الإمبراطور ماچوريان الذى أظهر من بالغ الكفاية ما لم يقره ريكيمر صاحب الفضل فى إجلاسه على العرش . ومنحهم أودواكر أحد زعماء مرتزقة الچرمان المحالفين بإيطاليا ، ما طلبوه من الحصول على مستوطنات فوق الأراضى الإيطالية ، كما فعل غيرهم من البرابرة بإقليمى غالة وأسبانيا ، فأعلنوه ملكا عليهم فى (٤٧٦) . وكانت نتيجة ذلك أنه أغفل رومولوس أوغسطولوس الإمبراطور الطفل الذى عينه سلفه (وذلك لأن نيپوس الحاكم الشرعى ، الذى اعترف به الشطر الشرقى للإمبراطورية ، كان قد فر إلى دالماتيا قبل ذلك بعامين) . وظل أودواكر حتى مجىء ثيودوريك يحكم إيطاليا مثلما حكمها ريكيمر ، غير أنه حدث بعد وفاة نيپوس فى (٤٨٠) أن السيد والإمبراطور الدستورى للبلاد لم يعد ملكا ضعيفاً يقيم بروما أوراڤنا ، بل صار الإمبراطور الذى يقيم بالقسطنطينية ، الذى كان أودواكر يعمل فى خدمته نائباً ملكياً من الناحية النظرية .

(*) يقال للواحد منهم سيد الجند أو مقدم الجند . (المترجم)

الشطر الشرقى

ومن الغريب أن تاريخ الشطر الشرقى للإمبراطورية الرومانية فى القرن الخامس ، يسير موازيا لتاريخ النصف الغربى . بل إن الأزمات فى الشرق تزيد ـ فيما يبدو ـ شدة وخطورة ؛ بيد أن الدولة تتغلب عليها بنجاح . وسنعمد الآن إلى تقصى أوجه التباين بين الشقين الشرقى والغربى . ففى (٤٠٠) بلغ نفوذ الجرمان بالقسطنطينية أقصى ذروته . إذ أمكن التخلص من روفينوس الوالى البرايتورى والخصى يوتروپيوس كبير الحجاب . فأضحى الحزب الرومانى رغم مساندة الإمبراطورة يودوكسيا عاجزاً لاحول له ولا قوة . وهنا انتقلت مقاليد السلطان إلى يد جائناس « سيد الجند » المتبربر ؛ وكانت جنده تعسكر داخل العاصمة ؛ وربما انتعشت آمال استيليكو فى تلك اللحظة ، سيما وقد كان يتبع سياسة مماثلة لسياسة جائناس ومتفقة معها تماماً . ولكن العواصف والرعود كانت تملأ رحاب الجو . فإن جند القوط كانوا من الوقحاء ، وأنكى من ذلك وأشد نذيراً بالشبور أنهم كانوا من الأريوسيين الهراطقة . ولم تلبث العاصفة أن هبت فى إحدى ليالى الصيف . إذ حدث بالمدينة شجار صاخب ، لم يلبث أن انتشر فى كل أرجائها . وأغلقت البوابات وطارد السكان الجنود وأعملوا فيهم الذبح ، أو أحرقوهم أحياء بالكنيسة التى لجأوا إليها . وفى تلك الليلة انقصمت قوة الجرمان إلى الأبد . وبعد ذلك ببضع سنوات تحرك إلى الغرب خطر القوط الغربيين بعد أن ظل منذ معركة أدرنة كغمامة قتماء تظلل البلقان ، تحرك غرباً عندما وجه ألاريك خطواته نحو إيطاليا .

وتولى العرش بعد أركاديوس وهونوريوس أميران لا يقلان عنهما ضعفاً وعجزاً ، هما ثيودوسيوس الثانى وڤالنتنيان الثالث . وانغمس بلاط الشطر الشرقى ، بتوجيه الحشد الكبير الذى يعمره من النساء ، فى النزاع المذهبى بين القسطنطينية والإسكندرية ، وهى معركة ضخمة لما يترتب عليها من عواقب سياسية[١] — وحوالى ذلك العهد اشتد ضغط الهون على الشرق أكثر منه على الغرب ؛ فأعملوا فى ولايات الشرق نهباً وتخريباً ، وأبهظوا سكانه بفادح الضرائب المدمرة ليحصلوا على المقررات المالية المطلوبة . ثم عاد الخطر فانحرف للمرة الثانية غرباً ، ثم تلاشى عقب وفاة آتيلا . بيد أن انقراض أسرة ثيودوسيوس تلاه ظهور أباطرة على جانب كبير من الكفاية (فى الشرق) ؛ على أن تدارك الموقف فى الغرب كان أوانه فات . فلم يستطع ماجوريان أن يفعل شيئاً إزاء وجود بربرى مثل ريكيمر . أما فى الشرق ، فإن ما اجتمع فى أيدى سادة الجند من سلطة خطيرة ، قد تعرض لعوائق عديدة . فما كان لأمثال استيليكو أو آئتيوس من سلطة مطلقة على جميع الموارد العسكرية بالبلاد : الجيش الدائم وقوات الثغور على السواء ، لم يكن أمراً تجيزه القسطنطينية[٢] بأية حال . وكان تهديد الوندال لإيطاليا من الخلف يزيد من اعتمادها على جيوشها ؛ ولم تتعرض القسطنطينية لمثل هذا الخطر الداهم . فلما تجدد ظهور الخطر الجرمانى ، اكتشف الإمبراطور ليو (لاوون) وخلفاؤه من القوى المضادة الفعالة ما يرده ويكبح جماحه .

وكل ما كان يطمع فيه عادة سيد الجند من البرابرة هو أن يتزوج أميرة من البيت الإمبراطورى . وبلغ تلك الغاية أسپار القائد الآلانى القوى،

---

(١) انظر ص ٧٠ بعنوان العداء بين القسطنطينية والاسكندرية .

(٢) انظر التذييل ١ .

الذى دبر عند وفاة الإمبراطور مرقيان (٤٥٧) تنصيب صنيعته ليو على العرش الإمبراطورى وأجبره بعد مصانعة طويلة للظروف ، أن يزوج ابنته من ابن أسپار ، راجياً بذلك أن يخلفه على العرش الإمبراطورى . ولكن ليو كانت لديه خطط أخرى قد دبرها . إذ استدعى إلى العاصمة فصائل قوية من الإيسوريين ، وهم عنصر جبلى شديد المراس من أحد أقاليم أسيا الصغرى ، فأضحى قائدهم تاراسيكوديسا (وهو الاسم الأصلى لزينون إمبراطور المستقبل) « سيداً آخر للجند » إلى جانب أسپار ، وتزوج من ابنة ثانية للإمبراطور ليو . وتألف حرس خاص جديد للإمبراطور ، معظمه من الإيسوريين وبذلك قام جهاز يصلح لتدبير انقلاب عسكرى ، غير أن ليو تردد فى استخدامه . وكان نفوذ أسپار يزداد فى تلك الأثناء قوة ، على حين أن الدولة لم تستطع ، وقد أضعفها الإخفاق الباهظ الذى منيت به الحملة البحرية التى سيرت على الوندال (٤٦٨) — أن تقوم بأية مقاومة له . وأخيراً حانت ساعة العمل . فاغتيل أسپار غدراً بإحدى الولائم وتمزقت شيعته بدداً ، على حين أن الحرس الجديد قضى على محاولة قام بها أشياع أسپار للهجوم على القصر (٤٧١). على أن القبائل القوطية التى كان أسپار يعتمد عليها كانت تملأ تراقياً بما رحبت ، وظلت بقيادة زعيمها ثيودوريك استرابون[1] تواصل على الدوام تهديد العاصمة . وكان الإيسوريون طائفة مكروهة من الناس ، وعندما عمد حزب البلاط بمساندة جند ثيودوريك ، إلى إقامة مرشح آخر منافس ، كان لزاماً على زينون ، الذى أصبح وقتذاك إمبراطورا ، أن يفر إلى موطنه إيسوريا . وهنا أيضاً فى القسطنطينية كان العلاج الناجع فى متناول اليد . ذلك أن ثيودوريك الآمالى (الذى أصبح فيما بعد ثيودوريك الأكبر) ،

(١) انظر ف ٢ بعنوان : « القوط الشرقيون » .

وهو ملك القوط الشرقيين فى مقدونية ، كان على أتم استعداد لمنافسة سميّه (ثيودوريك استرابون) فيما يتطلع إليه من ألقاب القسطنطينية وأموالها . بفضل معونته عاد زينون إلى العرش والسلطان ؛ وبتأليب الزعيمين أحدهما على الآخر ، لم تتحقق لأى منهما السيادة ؛ ولم يلبث زينون بعد وفاة ثيودوريك استرابون ، أن دبر أمر إيفاد ثيودوريك الآمالى لفتح إيطاليا[١] .

لقد زال الخطر الجرمانى ؛ ولكن بقيت أخطار أخرى . ذلك أن إيسوريا كانت بؤرة عصيان وفتنة . وظهر البلغار المترحلون فى حوض الدانوب الأدنى . وأخذت النزعات القومية تنمو ويصلب عودها بأرمينية وسورية ومصر . وأخذ العرب يغيرون على التخوم الشرقية والبلميون[٢] (Blemmyes) على الأطراف الجنوبية . وقد شل قراصنة الوندال حركة التجارة فى البحر المتوسط . ولكن هذه لم تكن إلا صعاباً هينة . ولم تعد فارس مصدر متاعب للإمبراطورية لانشغالها بغزوات الهون . على حين أن نفوذ البرابرة داخل الإمبراطورية قد كبح تماما . وبذا لم تبرح الإمبراطورية قائمة عند نهاية القرن.

كلوفيس وفتح غالة

ولم تنقض سنوات كثيرة حتى حاول المتحالفون فى غالة بسط حدودهم[٣] . فإن القوط الغربيين نزلاء أكيتانيا ، الذين أحبط ماجوريان محاولاتهم الاستيلاء على ساحل الريفييرا العظيم القدر ، حولوا وجهتهم إلى أسبانيا ، ولم يلبثوا حتى

---

(١) من شاء تفصيل هذه الأحداث فلينظر للمترجم . « الحضارة البيزنطية » تأليف برانسيان (الألف كتاب) (المترجم)

(٢) البلميون . قبائل تسكن جنوب مصر . (المترجم)

(٣) انظر ف ٢ القسم المعنون « البرابرة فى فرنسا وأسبانيا » .

احتلوا البلاد كلها عند (٤٧٦) باستثناء إقليم جليقية ، الذى صمد لهم فيه السويف . وحوالى ذلك تعرضت بروفانس لهجوم قوى . ولما لم تستطع إيطاليا إرسال أية مساعدة ، أصبحت ممتلكات القوط الغربيين بقيادة يوريك فى أقصى اتساع لها ، فامتدت من مضيق جبل طارق إلى مصب اللوار ومن المحيط الأطلسى إلى جبال الألب . وفى تلك الأثناء استولى البرجنديون فى ساڤوى على مدينة ليون ، وصار فى قبضة أيديهم حوض الرون بأكمله من چنيف إلى أڤنيون . وكان جلياً حتى ذلك الحين أن الفرنجة الساليين أدوا واجبهم كجند مرتزقة متحالفين . وكان ممثل روما بشمال غالة شخصية بالغة الغرابة ، تمثل صفات ذلك الزمان . إذ إن آيچيديوس ممثل روما عين فى عهد ماچوريان قائداً للجيوش الرومانية فى غالة . وانقطعت عليه السبل إلى إيطاليا بسبب وجود الممتلكات القوية التابعة للقوط الغربيين والبرجنديين ، فأصبح بذلك حاكماً مستقلا ، ثم خلفه فى هذا الوضع الشاذ ابنه سياجريوس ، الذى اتخذ سواسون عاصمة له . وكان البرابرة يعرفونه باسم ملك الرومان (Rex - Romanorum) — وهى عبارة لا معنى لها عند الرومان . وكان شلدريك وهو من رؤساء الفرنجة الساليين أعان القوات الرومانية على اللوار فى صد السكسون المغيرين ورد هجمات القوط الغربيين المتجهة شمالا . وأدرك بوضوح ميزة الاحتفاظ بشمال غالة مفتوحاً أمام زحفه . وفى تلك الأثناء كان الفرنجة الريبواريون ينتشرون على يمين الراين ويساره من مراكزهم فى كولن ومايتز .

وفى (٤٨٢) توفى شلدريك ، وخلفه على العرش ابنه كلوڤيس وقد بلغ من العمر ستةعشر عاما . وقد كابدت شخصية هذا العبقرى العجيب شيئاً من

التشويه من كثرة ما رُدِّدت فى ملاحم الساجا التى وضعها المعجبون المعاصرون له . فإنهم عبدوا فيه بطلا صورته أخيلتهم ؛ وبذا صيغ ما اشتهر به الفرنجة من وحشية ومكر وغدر فى أبلغ صورة ممثلا فى شخصية كلوڤيس الأسطورية . والراجح أن الصورة هنا أدق من تلك التى دبجها عنه الكاثوليك بوصفه المدافع التقى عن الدين ، الذى يشن حرب الهدى والنقى على الهراطقة والوثنيين . ولكن واحدة منها لا تنصفه . فإن عظمته الكاملة لا تتجلى إلا فيما أنجز من أعمال جليلة ، غيرت وجه بلاد غالة فى أقل من ثلاثين سنة . فلم يعد للالتزامات التى تقيد بها المحالفون أية قيمة ، وكان سياجريوس أول غرض لهجوم المحالفين . وإذ تعرض سياجريوس لهزيمة ساحقة قرب سواسون ، فإنه فر إلى القوط الغربيين ، غير أنهم أسلموه إلى كلوڤيس تحت التهديد ، فأمر بإعدامه . وسرعان ما سقط فى يد الفرنجة كل ما يقع من فرنسا شمال نهر اللوار (باستثناء إقليم بريتانى الذى حافظ على استقلاله قبائله الكلتية يعاونها لاجئون رومانيون بريطانيون) . وفى الآونة نفسها ، تمكن كلوڤيس باستخدام أساليب القتل والفتح أو المكيدة الحربية من بسط سيادته على سائر السالين ، وما لبث أن تهيأ له بنفس الوسائل إضافة الفرنجة الريپواريين إلى إمبراطوريته ، ثم دفع الألامان إلى ما وراء الراين بعد قتال مرير .

على أن حادثاً خطيراً وقع قبل إتمام هذه الأعمال — : وهو تعميد كلوڤيس على المذهب الكاثوليكى . وستظهر فيما بعد أهمية هذا الحادث . فمن نتائجه المباشرة أن تحول كل قسيس كاثوليكى بأرض القوط الغربيين أو البرجنديين إلى أداة تعمل على نصرة كلوڤيس ، والحصول على تأييد السكان الرومان فى غالة ، وجعله حليفاً مرغوباً فيه من وجهة نظر بيزنطة

ضد حكام الغرب الآريوسيين . وبفضل هذه الميزات ولضعف ألاريك الثانى الذى خلف يوريك على حكم القوط الغربيين ، قام كلوڤيس بمهاجمة القوط الغربيين ، وبعد بضع حملات لم يخالفه التوفيق فيها ، استطاع آخر الأمر أن يقهرهم فى معركة ڤوجليه (Vougle) الشهيرة قرب پواتييه (٥٠٧) . فلقى ألاريك مصرعه ، وانتقلت أملاكه بغالة إلى قاهره (كلوڤيس) ، وذلك فيما عدا شاطىء الريڤييرا الذى بادر القوط الشرقيون إلى الذود عنه فى الوقت المناسب ، وبذا تمكنوا من الاحتفاظ به لإيطاليا . ومنذ تلك الساعة اقتصر حكم القوط الغربيين على أسبانيا . وكانت آخر ضحايا كلوڤيس هى برجنديا ، ولكن فتحها لم يتم إلا بعد عشرين عاما من وفاته فى (٥١١) واستخدمت وسائل كثيرة ؛ منها الحرب الصريحة والارتباط بالمحالفات المبنية على المصاهرة ومساندة الأحزاب والخيانة والغدر والاغتيال . على أن برجنديا التى قامت بدفاع مجيد لم تخضع سنة (٥٣٢)[1] إلا نتيجة لتفوق عدد قوات العدو .

الممالك الجرمانية الرومانية

ولا يخفى أن اتحاد ثقافتين إنما هو عملية بيولوچية ، وأن ما يترتب على مثل هذا الاتحاد من نتائج لا يمكن تحليله بدقة شأنُ خلُق أى شخص وعدم إمكان تفسيره بنظريات مندل . ومع ذلك ، فإن ازدواج الثقافتين كان بالغ الوضوح فى المراحل الأولى . فإن معظم هذه الممالك سقطت قبل تحلل هذا الازدواج بزمن بعيد ، إذ إنه حتى مملكة الفرنجة نفسها لم تستكمل وحدتها التامة إلى أيام شرلمان . وكان الازدواج قطعة من طبيعة الاستيطان نفسه ،

---

(١) انظر ف ٣ القسم المعنون « المؤمرات السكاثوليكية فى فرنسا » .

الذى يعتبر من تراث الجمهورية الرومانية . إذ إن الجند المرابطين بالأقاليم كانوا ينزلون فى بيوت الأهالى ، الذين كانوا يتنازلون لضيوفهم عن نسبة معينة من ممتلكاتهم (هى فى العادة الثلث) . ويقتضى نظام الضيافة (Ho-pitium) كان بكل إقليم تقريباً فى القرن الرابع جماعات من الجند المرتزقة المحالفة (وهم محالفون من الناحية النظرية) . والراجح أن القوط والوندال كانوا يعتبرون — فى البداية على الأقل — عند الرومان بكل من إيطاليا وغالة وأسبانيا ضيفاً ثقيلا ومؤقتاً من نفس ذلك النوع . وبذا كان الانقسام حاداً بين الجرمان (البرابرة) والرومان ، فالسكان المدنيون ، فى جانب ، وهم يقومون بالإدارة والزراعة والتجارة ، والجند فى جانب آخر — وهم فى الأغلب من البرابرة المراطقة — لا يخضعـــون إلا لقوانينهم ، وعرفهم ، ولا ينزلون بالمدن ولا يدينون بولاء إلا لزعمائهم .

وكانت الملكية (حكم الملوك) شائعة الانتشار ؛ ولكنها لم تكن من الطراز الرومانى ، الذى تطور عن فكرة أوغسطس « الجمهورية » فقد كان الملك أو الرئيس الجرمانى ينتخب قديماً على يد جمعية الأحرار ، الذين كانوا يرفعونه على ترس ، وبذلك ينادون به زعيما لهم . فالملك ذو الشخصية القوية المنحدر من أسرة شهيرة مثل أسرة آمال أو بالثيد أو ميروفنج ، كان بوسعه أن يتحدى حلقة المقاتلين الأشـــداء ، وإذا هو وفق إلى الظفر فى القتال أو الغزو تزداد قوته ونفوذه . فعندما اقتاد ألاريك وجزريك وثيودوريك جماعات من أجناس مختلفة ونفذوا إلى الأراضى الرومانية ، لم يعد حكمهم قومياً ، بل تحول إلى زعامة شخصية تعتمد على أساس عسكرى . وزالت جمعية الأحرار من الوجود ؛ وأخلت الارستقراطية العنصرية المكونة من صغار الزعماء مكانها لطائفة جديدة مؤلفة من النبلاء يقومون بالخدمة فى

الوظائف اجتمعوا حـول شخص الملك بوصفهم محافظى قصر (صناجلة Seneschal) أو ماريشالات أو كونستبلات ؛ أو يتولون حكم أقاليم المملكة كالكونتات ، الذين جمعوا فى أيديهم السلطتين المدنية والعسكرية .

ومن الواضح أن هذا النظام البدائى مخالف تماماً لسلم الوظائف عند الرومان، فمثلا من الجائز أن يعهد إلى رجل البلاط عند الفرنجة القيام بمهام خاصة . على أنه بقى من النظام المالى الرومانى بعض الآثار الجزئية ، حتى بمملكة الوندال نفسها . فبقيت الضرائب غير المباشرة — واستمرت المكوس على الكبارى والمعديات — وبقيت أيضاً رسوم الموانى ونحوها — واستمر السكان الرومان يدفعون ضريبة الدخل ما بقيت سجلات الدولة قائمة . على أن الجرمان لم يفهموا الضرائب المباشرة . ولم يكن نظامهم السياسى يستسيغها ، كما هو ظاهر لنا عند الفرنجة . كان الملك حاكما مطلقاً : وكأن المملكة ملك خاص له يرثها ورثته ؛ وكانت إيراداتها تذهب إلى « خزائنه » . وليس عليه نحو رعاياه واجبات ؛ ولم يكن ثمة من الخدمات العامة ما يجرى الإنفاق عليه . وإذا نظرنا إلى الضرائب فى هذا الضوء تبين أن الضريبة لم تكن إلا ابتزازا غير مشروع ، يتولى جبايتها عادة القوات المسلحة . فإذا كان الملك ممن مست قلبهم التقوى أو أصابه مرض خطير ، التمس منه الأساقفة تخليص روحه من نار جهنم بإحراق سجلات الحسابات .

ومن الآثار الموروثة أيضاً عن نظام الاستضافة ، أن كلا من الجرمان والرومان ظلوا يخضعون لقوانينهم الخاصة[1] . ومع ذلك ، فإن ذلك الوضع

(١) انظر الزراعة الفصل الخامس عشر .

المتعب قد خففه التزام الجانبين لشيء من المساهلة والوفاق . ففى ممالك القوط الغربيين والبرجنديين التى اشتد بها الطابع اليونانى ، اقتبست مجاميع القوانين التيوتونية الشيء الكثير من التشريع الرومانى : أما فى مملكة الفرنجة فقد صار القانون السالى المختلف تماما عن القانون الرومانى ، سائداً بالمناطق التى يغلب فى سكانها العنصر التيوتونى .

وكان المبدأ الرئيسى فى القانون الجرمانى هو إبطال ما تأصل بين العائلات من عادة الأخذ بالثأر ليحل مكانها ما يكفله الملك من السلام . ولهذه الغاية وضعت قائمة مفصلة بقيم التعويضات . وكان لكل فرد دينه (Wergild) التى تختلف باختلاف سنه ومكانته ، والتى يدفعها قاتله لذوى قرباه . ولكل أصبع ثمنه ؛ وكل جرح يقدر التعويض عنه بغاية الاهتمام . والقانون السالى يمتاز بالشمول والتفصيل ؛ بما خصص به من التفاصيل حول سرقات الماشية أو الخنازير وعمر الحيوان وحالته ، وموضع الحادث وظروفه . ومن الواضح أن هذه التسويات لا علاقة لها بالعقوبة والجزاء ، فلم يكن الغرض منها سوى الحيلولة دون تطور الأمور حتى تصل إلى حد العداوة والمنازعات . ومما يشهد بأهمية الأسرة كوحدة اجتماعية ، ما ورد فى القانون السالى من نص مشهور يقضى بمنع الإناث من وراثة المزارع ؛ وبنا توزع الأرض بين الأبناء فقط بشرط ألا تخرج عن دائرة العائلة .

ومقدار الدية يمدنا بمعلومات ثمينة عن تنظيم المجتمع الفرنجى . فإن دية رجل البلاط ، وهى ٦٠٠ صولدى (Solidi) ، ثلاثة أمثال دية المقاتل الحر ؛ ودية الرومانى الحر (من جميع الطبقات) تعتبر نصف دية الفرنجى الحر ، كما أنها تعادل دية الفرنجى شبه الحر (Laeti) ، وهو من طبقة تقع

بمنزلة وسط بين الأحرار والرقيق ، وتقابل من بعض النواحى عند الرومان ، طبقة فلاحى الأرض الذين كانت ديتهم مع ذلك أقل من دية الرومان . أما الصناع غير الأحرار والأكثر مهارة مثل الصيّاغ ، فتزيد ديتهم على دية سائر العمال . وإن مركز الرومانى فى هذا التصنيف ليدل على انحطاط قدره . بيد أنه كان يستطيع تحسين مركزه بالدخول فى خدمة الملك ، كما فعل كثير من النبلاء الغاليين الرومان (Gallo - Roman) .

فرنسا فى عهد كلوفيس

والراجح أن قوة الغزو الكاملة اقتصرت على بلجيكا وشمال فرنسا . ويقع قلب مملكة الفرنجة شمالى نهر اللوار وشرقه ، ويضم مدن أورليان وباريس وريمز وسواسون وكمبراى وكولن (كولونيا) . وفى إمكان المرء منا أن يتصور ما كان يتناثر فى هذا الصقع من قرى وضياع : وهى مجموعات من بيوت ومخازن منخفضة البناء ومسقفة بالقش والقصب ، ومبنية بالخشب وأعواد الشجر والأقذار ، وتفصلها سياجات من غصون الأشجار عن الحدائق والبساتين والمروج والأرض المعدة للحرث . والواقع أن جميع ما نعرفه من أنواع اللحوم والفاكهة والخضر كان معروفاً وقتذاك ، كما يتبين من رسالة فى التغذية كتبها لكلوفيس الطبيب البيزنطى أنثيموس ، الذى أرسله إليه ثيودوريك الكبير . ومن ألوان الطعام المحبوبة لحم الخنزير والبيض المسلوق طويلا . ولكن البيض المسلوق لا يحظى باستحسان الطبيب . وهو يرى أن الجبن الطازج غذاء مفيد ، على أن ما كان قديماً وجافاً منه ، فليس سوى السم نفسه . ومما تذكره الرسالة السمك والدواجن ولحم الصيد واللحوم المطبوخة مع الخضروات وأنواع المشهيات المصنوعة من النبيذ والشهد ومركبات اللبن

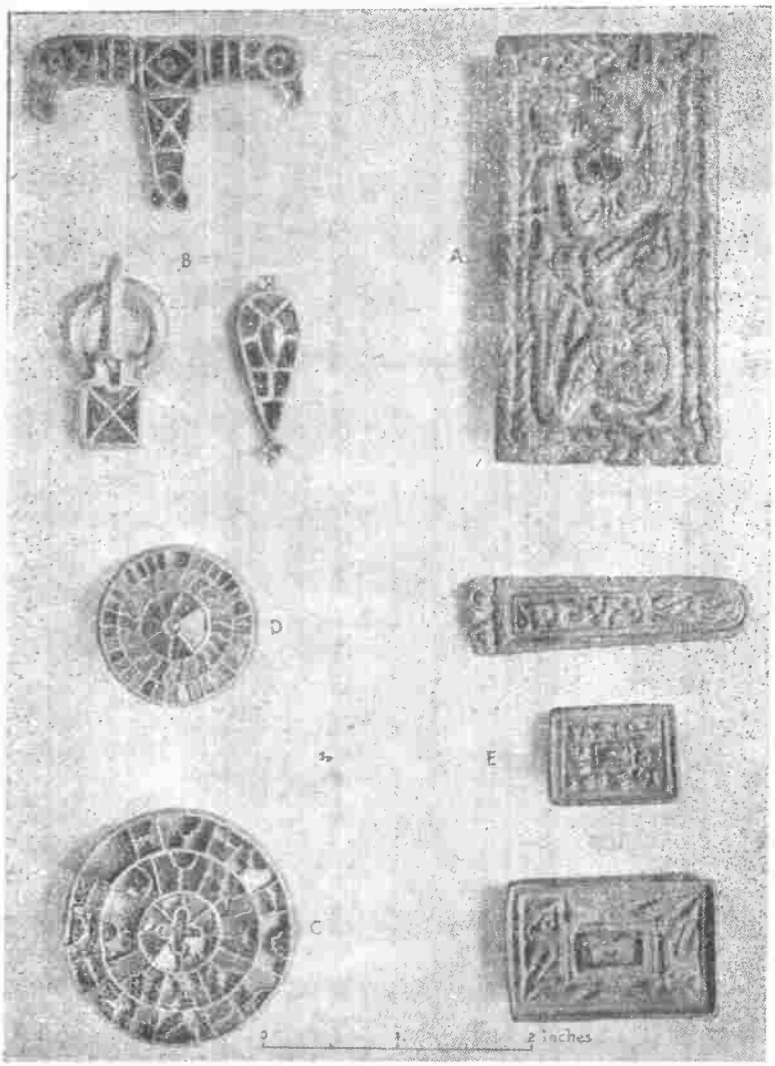

(٥) جواهر البرابرة

ثم الجعـة وشراب العسل . وتقدمت الزراعة . وكان القوم يستخدمون الطواحين التى تديرها الثيران إلى جانب الرحى اليدوية ، كما أن استخدام الطاحون المـائى الرومانى أخذ ينتشر . ولم يكن يجرى بتلك المنطقة إلا قدر ضئيل من التجارة ؛ وكانت الواردات الأجنبية مقصورة على أدوات الترف كمصنوعات العاج والجوهر والقرنفل والفلفل والبلح والتين . وكانت الطبقة الحاكمة تعيش فى معظم الأحوال بالريف ؛ وكان للأساقفة سلطان كبير على سكان الشوارع الضيقة بالمدن المسورة ، وكانوا يؤيدون دولة كلوفيس تأييداً قوياً . وفى مقابل ذلك ظفرت الكنيسة بالهبات السنية . وشيد كلوفيس وأبناؤه الأديرة فى باريس . وتمكن نيكيتيوس أسقف تريف (Trèves) من اجتلاب العمال الإيطاليين لتعمير الكنيسة البازيليكة القديمة وإن عمروها تعميراً رديئاً إلى حد ما . على أن أعمدة من الحجر الجيرى حليت تيجانها بما حفر عليها من أشكال وجه الإنسان ، حلت محل أعمدة الجرانيت الكورنثية ، التى تحطمت عندما أحرق الفرنجة المدينة . ودهنت الجدران لمحاكاة الواجهات الرخامية السابقة. ومع ذلك فإن كنائس أخرى تزخر بالفسيفساء ورقائق الذهب والزجاج الملون . وفى (٤٧٠) أعيد بناء البازيليكة التى كانت تغطى قبر القديس مارتن بمدينة تور ، وهى مركز شهير للحج ، وأقيم بها مكان نصف دائرى لجوقة المرتلين ، نقل طرازه عن مزارات الحج المقدسة فى الشرق كالناووس المقدس ببيت المقدس . ولم يلبث هذا الشكل المعمارى حتى تمخض عن طراز الحنايا (Chevets) بالكاتدرائيات الرومانسكية والقوطية بفرنسا . وتتجلى أيضاً فى حليات القوط والفرنجة مؤثرات شرقية ، هى مؤثرات الفن اليونانى السرمانى المعروف بشبه جزيرة القرم ، بما فيه من أشكال حيوانية

تتخذ بأسلوب خاص ، ومن الجواهر القاتمة المتلألئة ، أو مكعبات الزجاج المركبة فى مثقبات الذهب . ويدبج لنا سيدونيوس صورة مشرقة لشاب من نبلاء الفرنجة وحاشيته فى ثياب الاحتفالات والأعياد . وهو يشير إلى سراتهم المخططة اللاصقة بأجسامهم والتى تعلوها عباءات خضراء أرجوانية الحواشى ، ومن فوق هذه معاطف من الجلد ؛ وتبدو ركبهم عارية وقد انتعلوا أحذية من الجلد ؛ وتأتلق زخارف خيولهم بما رصعت به من جوهر وهم بحمائلهم وسيوفهم ، وبما يحملون من البلط والحراب والتروس البراقة ذات السرر الذهبية والحواشى المفضضة ، يسيرون خلف الأمير الذى ظهر بينهم فى « عباءة قانية الحمرة كلهيب النار وسترة (تونقة) حريرية ناصعة البياض مرصعة بالذهب ، وقد اتسق شعره الأشقر وحذاءاه الحمراوان وبشرته البيضاء مع ألوان عتاده وثيابه »[1] .

والمرجع الرئيسى لدينا عن أحوال غالة الجنوبية فى ذلك الزمان هو سيدونيوس أبوليناريس ، وهو نبيل من النبلاء الغاليين الرومان (G.R) وسياسى وشاعر ، أصبح فيما بعد أسقف كليرمونت فى أوڤرنيه (Auvergne). والمنظر الذى يصفه سيدونيوس منظر غريب التقت فيه آداب وطباع العصور القديمة والعصور الوسطى . وهو يشير إلى أن قلة من النبلاء قد اعتصمت بالقلاع القائمة فوق الصخور العالية ، بينما ظلت غالبيتهم يعيشون فى دور ريفية ضخمة ، ويقضون نهارهم ، شأنهم أيام هادريان ، داخل مكتباتهم وحماماتهم وفى مزاولة اللعب بالأكر أو فى الصيد أو فى القيام بزيارة الأصدقاء . وكانوا يتناولون طعامهم تحف بهم الأستار الأرجوانية ويعبق الجو من حولهم بنمائم

---

(١) عن ترجمة المستر أ . م . دالتون لسيدونيوس .

البخور ، وعلى موائدهم صحاف الفضة الخالصة والكئوس التى تزينها باقات الورود ، ويتلهون بالاستماع إلى نغمات القيثارة والناى ومشاهدة الراقصات الكورنثيات . ويتبادل القوم فيما بينهم رشيق القصائد ورفيع الرسائل ، التى يتجاهلون فيها ماوسعهم الجهد ، وجود البرابرة « المتشحين بالجلود » ، والذين هم يقيمون فى ممالكهم ، على أن انحدار مكانة روما أمر لم يكن خافياً . وربما أمكن المرء أن يهجو سراً أولئك البرجنديين الغلاظ ، أو أن ينكر الآداب المرعية فى بلاط القوط الغربيين ، غير أنه لا بد للفرد فى الحياة العامة أن يبذل لهم كل الملق . بل إن من الناس من تملك قلبه اليأس من روما فأخذت تراوده الأحلام بانفصال غالة عنها ، وجعلوا ثقتهم فى البرجنديين والقوط الغربيين الذين اصطبغوا بالصباغ الرومانى . وتمر أمام أعيننا فى ثروة ضخمة من التفصيل كل طرائق العيش المنوعة فى غالة الجنوبية . فتمر بنا صورة بلاط القوط الغربيين وملكهم الطويل المشوق وصيده وموائده وغرامياته ، وتمر أيضاً أشكال الحياة من سكسونية وهيرولية وفرنجية ؛ وفيها سادة الغاليين الرومان المتأدبون منهم والريفيون والأتقياء ؛ وهناك الأسقف والراهب والتاجر ؛ والكروم والمزارع والخانات والمسافرون واللصوص والسياسة وشعر الحكمة والأمثال والمناظر الطبيعية والمشاهد العائلية . وعلى الرغم من أن سيدونيوس لم يشهد فتوح كلوڤيس ، فالراجح استناداً إلى مصادر أخرى أنه لم يترتب عليها تغيرات جذرية . ذلك أن الحضارة الرومانية لم تستأصل من جذورها ، فإن البربرى اقتطف فى إعجاب الطفل الساذج الزهرة الواهنة التى فات أوان زهوتها ؛ وإذا هى تذبل بين أصابعه .

إيطاليا فى زمن ثيودوريك

على أن مملكة ثيودوريك الإيطالية تقف بمعزل عن ممالك غيره من الحكام الجرمان . إذ إنها محاولة فذة لاستخدام نظام للضيافة فى الاحتفاظ بالحضارة الرومانية كاملة غير منقوصة . كتب إلى الإمبراطور أناستاسيوس يقول : « إن مملكتى ليست إلا صورة مطابقة لمملكتك » . غير أنه كان فى الواقع فى وضع مخالف تماماً . إذ إنه لم يكن ملكا إلا على أتباعه من القوط الشرقيين وغيرهم . بينما كان يتولى الحكم على السكان الرومان بإيطاليا بوصفه نائب الإمبراطور الذى يحمل ألقاب « سيد الجند » و « البطريق Patricius » شأن ما فعله من قبل استيليكو أو ريكيمر أو أودواكر . وتجنب ثيودوريك الحصول على إيضاح حول وضعه ذاك ؛ إذ إن ذلك كان ينطوى ضمناً على التسليم بحق الإمبراطور فى الهيمنة عليه بل حتى خلعه ، بوصفه مجرد موظف طارئ . على أنه التزم الناحية النظرية فى كل أعماله . فإنه لم يسك عملة باسمه ؛ كما أن قراراته لم تكن تطبق إلا فى الولايات الإيطالية . إذ لا يجوز لأحد عدا الإمبراطور أن يضع رسمه على السكة ، ولا أن يسن القوانين (Leges) السارية المفعول فى الإمبراطورية . فبقيت الإدارة الرومانية المدنية سليمة لم تمس ؛ ولم يكن فى البلاط صناجلة[1] ولا ماريشالات بل الوالى البرايتورى وكبير الموظفين (Magister officiorum) وغيرهما . وظل مجلس السناتو يعقد جلساته فى روما ويلقى التبجيل من ثيودوريك . وظلت الولايات

---

(١) الصناجلة جمع صنجال وهو ناظر أوحاجب القصر الملكى عند الفرنجة .
[المترجم]

يحكمها ويجبي الضرائب منها موظفون من الرومان . على أن فجوة عميقة كانت تفصل بين القوط والرومان أى بين العسكريين والمدنيين . وكان الزواج بين العنصرين محظوراً . ولم يكن الفريقان يلتقيان إلا عند القمة فى شخص ثيودوريك الذى كان هو نفسه مواطناً رومانياً ، على الرغم من أنه ليس فى وسعه أن ينقل هذا الوضع إلى غيره . وكان القوط خاضعين لكونتات (Comites) الأحياء ، شأنهم فى سائر الممالك الجرمانية الأخرى . واستحدثت وظائف جديدة تتمثل فى الحماة (Saiones) الذين يتولون وقاية الرومان من ظلم القوط وفحص حالات سوء استخدام السلطة مثلما كان يفعل عملاء الإمبراطور (Agentesin rebus)

وإن « مرسوم ثيودوريك » ليعطينا فكرة واضحة عن سياسته . فإنه عبارة عن مجموعة قوانين مستمدة كلها تقريباً من التشريع الرومانى وليس بها إلا مبتكرات ضئيلة . وقد بذلت محاولة خاصة ، كما حدث فى القانون السالى للاستعاضة عن الأخذ بالثأر بالالتجاء إلى الطرق القانونية . ويحافظ المرسوم على المركز الممتاز لملاك الأرض ، غير أنه انطوى أيضاً على تدابير لمنع الظلم الواقع على صغار الفلاحين (Coloni) . وقد صدرت قوانين صارمة لمناهضة الاختطاف وهى تعد دليلا على قلة الأيدى العاملة . على أن الطبقات الدنيا أفادت بطريق غير مباشر ، لا بفضل الأمن والسلام اللذين أضاءهما حكم ثيودوريك القوى فحسب (يقول معاصر معجب به : « لم تكن بوابات المدن تغلق قط ») ؛ بل بالإضافة إلى لائحة الأسواق الدقيقة التى أصدرها وضبط أسعار المواد الغذائية . ولحرصه على أن تكون مؤونة الجيش رخيصة الأسعار ، منع ملاك الأراضى من الاستغلال فزاد انخفاض الأسعار . وكان الغرض العام من المرسوم المحافظة على القديم . فليس وراءه أية نظرية يقوم عليها ، إذ الهدف الأول

والأخير منه الاحتفاظ بالحضارة الرومانية إلى الأبد ، ثابتة دون تغيير ، وآمنة داخل حلقة الحراب القوطية .

وكان ثيودوريك سعيد الحظ بمادحه كاسيودورس ، الذى يعرض سياسة سيده فى عبارات ملتوية ، وهى وإن كانت تنطوى فى تكلف على فخامة اللفظ والحذلقة ، فإنها تعلو أحياناً إلى مرتبة الفصاحة الحقة ، ويتجلى فيها دائماً روح كريمة شريفة . على أن التدابير التى اتخذها تفصح عن نفسها . فإن الضرائب أجلت ، وافتدى المواطنون الرومان من قبضة المغيرين البرجنديين . وحصنت قلاع الحدود . وجددت الأسوار وسقايات المياه ودور التيانرات[1] بروما وراڤنا وڤيرونا . وحرصت الحكومة على ما اختصت به العاصمة من حق المجانية فى الحصول على الخبز ومشاهدة السيرك . وقام فى راڤنا قصر فخم وكنائس عديدة ومقبرة فخمة ، وكان بلاط ثيودوريك فى راڤنا مركزاً لحكومة قوية . وكانت أيضاً وسيطاً ينقل الثقافة إلى الممالك الجرمانية ، أو على الأقل ، بعض مظاهر المدنية وألاعيبها . فقد تلقى ملك برجندية ساعة مائية ، على حين حصل كلوڤيس على موسيقار وطبيب بيزنطى مع التحيات المناسبة . وانطلق شعراء كثيرون من إيطاليا يلتمسون حظهم عند ملوك غالة . وظهرت نهضة أدبية صغيرة . وكانت ميلان من مراكز تلك النهضة ، وازدهرت فيها مدارس النحو واللغة تحت رعاية الأسقف لورانس فكان يؤمها الصبيان من كل صقع حتى من غالة . فهنا وفى ميلان وراڤنا كان الرومان أمثال كاسيودورس وإنوديوس يؤيدون حكم القوط . ولم يلق حكم القوط معارضة إلا فى روما .

---

(١) التيانرات : التياترو لفظة أقرها مجمع اللغة العربية ونشرها بمعجمه الوسيط . وهى هنا تدل على المدرج العظيم الذى كان يجتمع فيه الرومان لشهود الحفلات . (المترجم)

فإن المدارس الشهيرة بالعاصمة بما تهيأ لها من تقاليد عريقة وأساتذة موفورى المرتبات ، كانت تعتبر المعقل الحصين للأسرات السناتورية العريقة وموئل التراث القديم . وكان لكثير من هذه العائلات صلات بالقسطنطينية ؛ ثم أخذ ثيودوريك فيما بعد يرتاب فيما يجرى فى تلك الناحية من مؤامرات على الحكم الآريوسى والقوطى .

ويعتبر بوئيثيوس أعظم الرجال فى إيطاليا زمن القوط الشرقيين ، وهو من تلك الشخصيات النادرة الذين يجمعون فى أنفسهم كل معارف زمانهم . فهو عالم وفيلسوف ولاهوتى وشاعر ، وقد أصبح قنصلا وهو فى الثلاثين من عمره ، وأدى خدمات هامة لثيودوريك . ولكن لعله يمثل عصره حق التمثيل بذلك التناقض بين ظاهر مركزه وحقيقة ذلك المركز. ففى تلك القصيدة المترعة بالحقد التى جعل عنوانها «عن بوئيثيوس وتقلده السيف» أظهر إنوديوس التناقض العميق بين ما كان للحزب الرومانى « من مزاعم ضخمة خيالية » وما كان جارياً فعلا من تفوق القوط فى السلاح ، على أن بوئيثيوس فى كتاباته — رغم تفوقه فى الفنون الأربعة الحرة[1] — واعتباره الشارح الصادق لأرسطوطاليس وفرفوريوس ، وميله إلى التعاريف والصفات المميزة وكونه من رجال اللاهوت البارعين — لا يبدو أنه « آخر الرومان » وإنما هو النموذج الأول للعلماء والمدرسانيين[2] فى القرون الوسطى . وترجم الملك ألفريد إلى الإنجليزية

---

(١) الفنون الأربعة الحرة : (Quadrivium) هى فى التربية بالقرون الوسطى فروع الرياضيات الأربعة : الهندسة والحساب والفلك والموسيقى . (المترجم)

(٢) العلماء المدرسانيون (Schoolmen) : هم فلاسفة العصور الوسطى أو علماء اللاهوت بها ، والمدرسانية مصطلح وضعه المترجم للدلالة على هذا النوع من الفلسفة . (المترجم)

أشهر أعماله وهو الكتاب المعروف باسم السلوى الفلسفية Philosophiae Consolatio . وكان أثره قوياً فى فكر العصور الوسطى كأى كتاب آخر . وقد صنفه بوئيثيوس وهو فى سجنه . وأدرك ثيودوريك أن مسارعة ، النبلاء إلى قبول مراسيم الإمبراطور چستين المناهضة للأريوسية ، سوف تدمر كل ما قام به فى حياته من عمل . فأمر — وقد أفقده المرض والشكوك توازنه العقلى — بإعدام بوئيثيوس مع إنزال التعذيب القاسى به . واعتبره الكاثوليك شهيداً ، وإن كان الأخلق به أن يسمى بشهيد قضية السناتوريين. ويرجع ذلك إلى ما كان من الخصومة بين حزب القاتيكان بمن انحاز إليه من رجال القانون من العامة (البلبيان) ، الذين أخذوا وقتئذ فى وضع الأساليب والطرائق التى اشتهر بها بعد ذلك المجلس البابوى ، وبين الدائرة الصغيرة من الأسر النبيلة المستمسكة بحكم نشأتها وتربيتها بمثل عليا أقدم عهداً وأشد تهذيباً . .

وتنقسم سياسة ثيودوريك الخارجية إلى فترتين ؛ ويعتبر ظهور كلوڤيس حداً فاصلا بين هاتين الفترتين . فكانت خطته أول الأمر أن يطمئن إلى سلامة التخوم الإيطالية بإبرام سلسلة من المحالفات مع الممالك الجرمانية الواقعة إلى الغرب منه . ذلك أن تلك الدول الآريوسية البربرية تشترك جميعاً فى نوع المشاكل المتعلقة برعاياها من الرومان المستمسكين بالعقيدة السلفية ، والمتصلة بعلاقاتها بالإمبراطور (البيزنطى) السيد الأعلى اسمياً . وكان هدف ثيودوريك أن يقيم توازناً للقوى بين هؤلاء الحكام ، وأن يقوم بدور الوسيط بينهم وبين القسطنطينية . وبهذه الوسيلة استطاع أن يكفل لنفسه الزعامة على الممالك الجرمانية ، وأن يجعل نفسه نافعاً للإمبراطور . وكان يرجو من وراء ذلك أن

يكوّن مقاومة قوية لأية فكرة لاسترداد إيطاليا (Reconquista) تراود عقول رجال الدين أو الإمبراطور فى بيزنطة . (فإنه لم ينس سقوط سلفه أو اودوا كر) . ووفقاً لهذه الخطة تزوج ثيودوريك من شقيقة كلوڤيس ؛ وزوجت إحدى بناته من ألاريك الثانى ملك القوط الغربيين ، وتزوجت أختها من سجسموند أمير برجنديا . وتزوجت أخته من ثراسامند ملك الوندال ، وبذلك أزال الخطر من جنوب إيطاليا . أما إقليم الدانوب الذى يصح أن تجتازه الجيوش البيزنطية فقد أمنه طرد الچيبيد من سرميوم المركز الاستراتيجى العام .

وتحطم الصرح المعقد بأكمله بضربة واحدة ، يوم انتصر كلوڤيس والبرجنديون فى (٥٠٧) على جيوش القوط الغربيين فى وقعة ڤوجليه[١] . وعندئذ لم تعد هناك أية جدوى من كل ما اتخذه ثيودوريك من وسائل لتحذير ألاريك مما يحدق به من خطر ، ولعزل برجنديا الدولة الحاجزة . وهنا علت فى غالة كلمة دولة كاثوليكية كبرى تؤيدها القسطنطينية فيما يبدو ، وكانت إسفينا يمتد بين الدول الآريوسية المذهب . وكان لابد بأى ثمن من منعها من الوصول إلى البحر المتوسط . وذلك بأن يزحف ثيودوريك على غالة ، وينتزع إقليم پروڤانس من البرجنديين . ويجعل نفسه قيما على حفيده القوطى وارث عرش أسبانيا . وتُعقد محالفات جديدة مع الثورنجيين ، وهم الجيران الأقوياء للفرنجة ، ومع الهيرول على الدانوب . وتُحصن قلاع الألب . وتحل محل سياسة التوفيق بين المصالح المختلفة سياسة الصدام بين الدول . على أن هذه التدابير ، لم تصب — فيما يبدو — شيئاً من النجاح هى الأخرى . وتوفى كلوڤيس فى (٥١١) ؛

---

(١) انظر : « الممالك الرومانية الجرمانية ف ٣ » .

وعلى الرغم من أن العلاقات مع القسطنطينية كانت تتغير بلا انقطاع تبعاً لتغير مزاعم البابا ودعاويه ، ولما كان من الخلافات المذهبية ومؤامرات السناتو والمطامع الإمبراطورية ، فإن تلك العلاقات لم تلبث ـ فيما يبدو ـ أن استقامت حينما تولى چستين سنة (٥١٨) العرش عقب أناستاسيوس . وكانت لثيودوريك ابنة أخرى هى أمالاسونثا زوّجها من يوثاريك ، وهو قوطى يجرى فى عروقه الدم الملكى ، ثم بدا كأنما تأكدت له وراثة الملك يوم تبناه چستين رسمياً وأصبح زميلا له فى منصب القنصلية . ويختم كاسيودورس تاريخه بذكر الحفلات البهيجة التى أقيمت فى روما احتفالا بهذا الحادث . ولكن الجوتلبد وآذن بالإعصار قبل وفاة ثيودوريك . فقد تولى العرش فى برجنديا أمير كاثوليكى ، فأصبحت بذلك خاضعة لسلطان كلوڤيس ، وأخذت تتفاوض مع بيزنطة تقدم إليها مودتها . وأخذ يوم الصراع بين القوط الشرقيين والفرنجة يزداد قرباً كلما اشتد ضعف الدولة الحاجزة . وفى تلك الأثناء أصبح الهيرول جنداً مرتزقة محالفين للإمبراطورية، وأخذوا يهددون الحدود الشمالية الشرقية . أما الوندال، وهم من أخطر الأعداء ، فقد أظهروا عداوتهم وكراهيتهم لثيودوريك . والآن وقد اندمل الانشقاق بين روما والقسطنطينية ، فإن البابا والنبلاء أصبحوا عند ذاك يداً واحدة فى تأييدهم للإمبراطور . وأصبحت أيام الحكم القوطى الشرقى معدودة ، ومن ثم لم يعد لما اتخذه ثيودوريك من إجراءات صارمة للقضاء على كل مناهضة لحكومته من أثر سوى أن أضافت إلى ثيودوريك بطل الجرمان فى ملحمة ديترتش (Dietrich) ، صورة أخرى وردت فى الحكايات الشعبية الرومانية وسير القديسين لشخصية ثيودوريك الظالم المضطهد البشع الذى تراءت له فى ساعة نزعه الأخير ضحاياه ، وألقت به أيديهم الثائرة فى نار جهنم البركانية .

الآريوسية الجرمانية

حدث بعد (٣٤٠) أن أولفيلاس تمكن من هداية بعض القوط الساكنين عند مصب الدانوب إلى اعتناق المسيحية ، وكان أجداده قد نزحوا من قبادوقيا فى إحدى الغارات وأكسبه عمله الكبير لقب « رسول القوط » . وقد ترجم الكتاب المقدس إلى لغتهم ، ولكنه أسقط من الترجمة سفر الملوك ، إذ رأى أن قصص حروب العبرانيين قد تبلغ من الإثارة مالا يحتمله هؤلاء القوم المعروفون بشدة الحمية . ولقد لقى أولفيلاس فى البداية مقاومة عارمة ، ولعل ذلك يعود إلى عرضه المسيحية فى صورة العقيدة المسالمة ، بيد أن الإنجيل لم يلبث أن انتشر بسرعة ، وانتقل غرباً مع القبائل الغازية إلى إيطاليا وغالة وأسبانيا وإفريقية . وكان أولفيلاس أريوسى المذهب ، وأصبحت هذه الهرطقة هى الصورة العامة للمسيحية الجرمانية ، على الرغم من أنها كادت تتوارى من الإمبراطورية نهائياً . وكانت النتائج السياسية لهذه الحقيقة بالغة الأهمية ؛ إذ إنها دقت بين الرومانى والبرابرة إسفينا أقوى وأعمق من العنصر والثقافة ، والواقع أن مذهب آريوس الذى أصبح يطابق وقتئذ المدنية الجرمانية ، — تعرض لتغيرات عديدة . إذ إن هذا المذهب ظهر أول الأمر على أنه خلاف لاهوتى . ولم يلبث أن تطور فى أرض البرابرة إلى كراهية للاعتقاديات (Dogma) زاد فى أوارها — دون أدنى ريب — عجز الجرمان عن فهم أسلوب اليونان فى التحايل الفكرى الحاذق الذى كان فى حد ذاته ثمرة تقاليد فى الفلسفة الجدلية لا يقل عمرها عن ألف سنة ؛ وهذا البغض للاعتقاديات يعتبر عودة إلى التعاليم البسيطة التى كانت سائدة قبل مجمع نيقية . ولم يقتصر الأمر على نقل الكتب المنزلة إلى اللسان القوطى ؛ بل تجاوزه

إلى حد ما إلى الصلوات بالكنيسة . والراجح أن تنظيم الكنائس الأريوسية ، وهى المنقطعة الصلة بالنفوذ الكاثوليكى لاتهامها بالزندقة ، فضلا عن فارق الجنس ، — قد تأثر بالعرف الجرمانى ، على حين أن انعزال الكنائس المستقلة إنما يرجع إلى ضغط العرف الدستورى . وعلى غرار النظام الإدارى للأقاليم فى داخل الإمبراطورية ، قام سلم وظائف الكنيسة الكاثوليكية المؤلف من البطارقة والأساقفة . ولعل ما تبقى من آثار الروابط الوثنية القديمة بين القبائل والكهانات المحلية كان له أثر قوى فى تحويل الكنائس الآريوسية بكل مملكة من الممالك الجرمانية إلى كنيسة قومية لا تتجاوز دائرتها حدود قومها وتخضع لنفوذ ملكها ويشتد حرصها على تقاليدها القومية .

وكان الرعايا الكاثوليك لدى ملوك الجرمان يلقون تسامحاً كبيراً فى المعاملة؛ فلم يكن ثمة مايدعو للقيام بمحاولة منظمة لحملهم على اعتناق المذهب الآريوسى، وذلك بسبب الانفصال التام بين الجرمان والرومان . إذ كان الإحساس الذى ساد الجميع هو أن عقيدة الرجل هى عقيدة أمته : وإن كلمة ثيودوريك فى هذا الشأن لمعروفة مشهورة حيث يقول : « نحن لا نستطيع فرض دين على أحد ؛ فلا ينبغى إجبار أى إنسان على الإيمان بشىء يناقض إرادته » . ومع ذلك فمن العسير الفصل بين الدين والسياسة ، ومن ثم فإن جميع ما كان يتخذ من إجراءات القمع فى كل الممالك الجرمانية كان يستند إلى ما كان الرومان يبذلونه من محاولات للائتمار مع إخوانهم الكاثوليك داخل المملكة أو خارجها بقصد إعادة الحكم الإمبراطورى ، أو بقصد مساعدة ملك كاثوليكى مثل كلوفيس فى فتوحه . على أن الارتياب فى وقوع الخيانة والكراهية العنصرية ، طالما شحذت هذه الإجراءات فأحالتها إلى اضطهاد . وظهر بين

الوندال فى إفريقية عامل آخر هو لهيب التعصب الدينى — غير أنه ينبغى لنا ألا نبالغ فى آثار هذه المسألة الأخيرة . ولم يحدث أى اضطهاد دينى مابقى جزريك على قيد الحياة ، وإن تمخضت ظروف الفتح الوندالى بطبيعة الحال عن بعض المصاعب . وكاد جزريك أن ينشىء من شعبه نواة مركزية تتجمع حول قرطاجة ، وينبغى أن تحتفظ بالطابع القومى[١] . ومن ثم فإن الرومان المجاورين قد طردوا من ممتلكاتهم ، التى أصبحت « من نصيب الوندال » ؛ وتقرر أيضاً طرد رجال الدين الكاثوليك من المنطقة ، لكى لا تتسرب إليها مؤثرات رومانية ، وانتقلت أملاك الكنيسة إلى الأريوسيين ولم يبدأ الاضطهاد المنظم للكاثوليك إلا فى (٤٨٣) وفى عهد هونريك الابن المقوت لجزريك ، فنشب أول الأمر بالمنطقة المحيطة بقرطاجنة ، ثم انتشرت المملكة بأكملها ، وعلى الرغم من شدته فإنه انتهى بموت الملك فى السنة التالية .

المؤامرات الكاثوليكية فى فرنسا

لم يكن القوط الغربيون يضعون فى اعتبارهم سوى نقطة الخلاف السياسى. إذ إن ملكهم يوريك ـ وهو يبسط نفوذه على أوڤرنيه ـ وجد أن من الضرورى أن يأمر باعتقال سيدونيوس أسقف كليرمونت وزعيم الأرستقراطية الغالية الرومانية ؛ غير أن الاعتقال لم يكن بالغ الشدة ، ويظهر أن أشد ما كان يضايقه هو هذر عجوزين شمطاوين تحت نافذة سجنه ، وكان يمتد خلف

---

(١) ومن قبيل هذه المراكز تجمعات قوط أودواكر وثيودوريك حول رافنا وفيرونا (وديتريش البرن فى الملحمة هو ثيودوريك الفيرونى) ومدن شمال إيطاليا ؛ وتجمع الفرنجة فى شمال شرق فرنسا والسويف فى جاليكيا .

الغزاة أثر طويل مما ينبعث من الكنائس المحترقة من الدخان وما ينمو فى الهيا كل المخربة من الأعشاب ، غير أن السكان الرومان فى غالة وسائر الجهات ، لم يتعرضوا للأذى بعد أول هجوم عليهم سواء من الفرنجة أو القوط. على أن ظهور كلوڤيس ، وهو جرمانى كاثوليكى غير وضع الأمور كلها . ذلك أن المقاومة الكامنة الناشبة بين الآريوسيين والكاثوليك فى المملكتين الكبريين للقوط الغربيين والبرجنديين ، أصبحت وقتذاك جلية لاتخطئها العين . إذ اجتمعت فى الكاثوليكية كل تقاليد روما وحضارتها . كانت الكاثوليكية قوة دولية ، وكانت الحلقة الأخيرة مع عواصم الإمبراطورية ، التى يرأسها كثير من عائلات غالة السناتورية[1] ، وهى التى تتولى تخفيف ويلات المجاعة أو الفقر . وإزاء هذا الوضع وهذه المعارضة ، لم يكن بوسع الكنائس القومية الآريوسية التابعة لأقلية حاكمة من البرابرة ، بما طبعت عليه من روح جرمانية ونظام مركزى ، أن يكون لها فى آخر الأمر السيادة .

وقام رجال الدين الكاثوليكى بكل من مملكتى القوط الغربيين والبرجنديين بمؤامرات متماثلة قصد بها العمل على زيادة بسط سلطات الفرنجة . فإن قيصريوس (Caesarius) أسقف آرل وهو من رجال العلم والسياسة ، قام بدور كبير فى الأحداث التى تركزت حول حصار آرل المشهور بمن فيها من حامية من القوط الغربيين ، وذلك بفضل القوات المشتركة من البرجنديين والفرنجة . على أن الأسقف تعرض للنفى فترة من الزمن ، لاتهامه بمحاولة خيانة المدينة وتسليمها لبرجنديا . واستولى القوط الشرقيون فعلا على المدينة ،

---

(١) السناتورية : نسبة إلى مجلس السناتو ورجاله كما هو واضح . (المترجم)

وفشل بذلك قيصريوس فى تحقيق مراده ، حتى إذا انهزم القوط الغربيون قرب ڤوجليه ، لم تعد مسألة اعتراف فرنسا بأجمعها بسيادة كلوڤيس عليها إلا مسألة وقت . وفى برجنديا ، كان يشغل أهم كرسى أسقفى بها ديبلوماسى عظيم هو أڤيتوس من ڤيينا (Avitus of Vienne) . وعلى الرغم من صلته الوثيقة بكلوڤيس ، حرص على توطيد علاقته بجاندوباد ملك برجنديا الذى أحسن معاملته هو والكاثوليك ؛ ولكن أڤيتوس لم يتردد فى العمل لصالح الفرنجة . وذلك لأنه كان يضع مصالح كنيسته فى المقام الأسمى . وربما جاز لنا أن ندلى إليك بالحقائق الأساسية فى هذا الموضوع . فالمعروف أن كلوڤيس حاول أول الأمر فتح برجنديا (٥٠٠) بأن ساند ثورة شقيق جاندوباد ؛ ومن أسباب فشل الثورة تأييد القوط الغربيين لجاندوباد . على أن أڤيتوس كان يستمتع بنفوذ جارف فى البلاط البرجندى ، حيث كان معظم أفراد الأسرة الملكية يعتنقون المذهب الكاثوليكى فعلا ، وحمل جاندوباد على تغيير سياسته من النقيض إلى النقيض، والانضمام إلى قضية الكاثوليكية الفرنجية ، بأن يتخلى عن الخطة التى سبق لملك القوط الشرقيين ثيودوريك أن اهتم بوضعها ، وتقضى هذه الخطة باتخاذ المصاهرة أساساً لعقد محالفات بين الممالك الجرمانية الأريوسية . وكانت تلك هى النقطة الحاسمة فى سقوط برجنديا . ذلك أن الفرنجة والبرجنديين اشتركوا فى تقويض مملكة القوط الغربيين فى معركة ڤوجليه ؛ ولكن برجنديا التى اتخذت أداة ما عتمت أن فقدت كل ما اكتسبته من أراضٍ نتيجة لتدخل ثيودوريك الذى كان بيده ساحل الريڤييرا[١] ، على حين أن الفرنجة أقدموا فى خسة ودناءة على اقتسام الغنائم

---

(١) انظر : « القوط والرومان ف ٣ » .

مع القوط الشرقيين . وفى عهد سجسموند الملك التقى الضعيف ، اعتنقت برجنديا المذهب الكاثوليكى رسمياً وبذلك صار لأڤيتوس وشيعته من رجال الكنيسة أكبر نفوذ . وعندما قتل سجسموند ابنه ، وكانت أمه ابنة أخت ثيودوريك ، حدث شقاق صريح بينه وبين القوط الشرقيين . وبادر الفرنجة إلى اغتنام الفرصة فغزوا برجنديا . وهزم سجسموند ولم ينقذه السحابه إلى أحد الأديرة من القتل لاهو ولا عائلته . فإن المغيرين قذفوا بهم فى إحدى الآبار . على أن أخاه جودومير نجح فى صد الفرنجة فترة من الزمن ؛ وراح بهمة عظيمة وعزم قوى يعيد تنظيم الجيش ويصلح المالية ، وأوقف المؤامرات الكاثوليكية عند حدها ، بل لقد نجح فى العدول عما انتهجه جاندوباد من اتجاه مدمر فى السياسة البرجندية بأن تحالف مع القوط الشرقيين . ولكن ثيودوريك كان قد مات ، وحلت الاضطرابات بمملكته . وزالت قوة القوط الغربيين من فرنسا ، ولم يعد ثمة مايوقف تقدم الفرنجة .

وفى (٥٣٢) عاود خلفاء كلوڤيس الهجوم ، ومن ثم سقطت برجنديا بعد أن قاتلت حتى آخر رمق — أمام هجمات الكاثوليك المظفرين . وعندئذ تكلل ما بذله أڤيتوس وقيصريوس من جهود بالنجاح بيد أن ما حصل عليه رعاياهما من الكاثوليك من امتيازات لم يكن له أثر كبير فى إرجاء تدمير الممالك الآريوسية فى غالة . وبقيت المسألة الكاثوليكية تشغل أذهان حكام القوط الغربيين فى أسبانيا إلى أن وحد ريكاريد (٥٨٦ — ٦٠١) كلمة رعاياه وأمن حدوده باعتناق العقيدة السليمة .

وتوج كلوڤيس عمله العظيم فى غالة بإنشاء كنيسة قومية لها ، جمعت بين الميزات السياسية للنظامين الكنسيين الآريوسى والكاثوليكى . إذ خضعت

(٦) ا ــ صورة آل سياخى
(مدرسة الإسكندرية)

(٦) ب ــ صورة عبادة المجوس
(المدرسة السورية)

للكنيسة لسلطة الملك ، وكان سلم وظائف كهنوتها على اختلاف درجاته عوناً عظيما لحكمه ؛ وكانت حدود السلطة الكنسية تطابق حدود مملكته تمام المطابقة ؛ ولم تكن مطرانية آرل تحظى إلا بمكانة شرفية على الرغم من الاعتراف بها كممثلة للكرسي البابوى . وفى الحين نفسه تأكدت مزايا الاتصال بروما وبيزنطة ؛ ولم يعد ثمة ما يدعو إلى الخوف من المؤامرات الكاثوليكية ؛ ومن الاعتبارات الهامة أن كلوفيس لم يعد يخشى — شأن غيره من حكام الجرمان الوندال — من أن تطمس الشخصية القومية للجرمان تحت كثرة السكان الرومان الذين يفوقونهم فى العدد والحضارة . إذ كان بنو جلدته من الفرنجة بشمال اللوار موفورى العدد جداً ؛ كما أن أعداداً ضخمة من التيوتون كانت تنزل قريباً منه فيما وراء الراين ، وحصلت مملكة كلوفيس بإخضاعها الألامان على طابع جرمانى فتحقق بذلك التوازن مع السكان الغاليين الرومان فى البلاد التى فتحها أخيراً .

ثيودوريك والكنيسة

على أن علاقة ثيودوريك برعاياه الكاثوليك عادت عليها أحوال البابوية بالتعقيد والضرر، ولاسيما الانشقاقان الخارجى والداخلى، اللذان أثرا فى اتجاهه نحو الرومان والقسطنطينية . وعلى الجملة وقع التنازع بين ثلاث دعاوٍ متصارعة ؛ الدعوى الأولى تتعلق بما يزعمه البابا لنفسه من الصدارة على الكراسى الرسولية ؛ وأن يكون المرجع الأخير فى كل ما يتعلق بالاعتقاديات (Dogma)، أما الدعوى الثانية ، فتتصل بما يطلبه البطريرك البيزنطى من المساواة مع روما والأسبقية على سائر البطريركيات فى الشرق ؛ والدعوى الثالثة والأخيرة هى

أن يكون للإمبراطور على الجميع السيادة العامة الشاملة . ولم يكن مفر من حدوث الاحتكاك بين الادعاءات الثلاثة ، ولم يكن مفر من أن يؤدى الاحتكاك إلى الانشقاق بين روما والقسطنطينية ، الذى امتد من (٤٨١ إلى ٥١٨) . ومن الطبيعى أن يشجع ثيودوريك هذا الصدع الذى منحه تأييد البابوية . وزاد نفوذه قوة عندما تمخضت الانتخابات البابوية عن ظهور مرشحين متنافسين ، التمس كل منهما المساندة من الملك الآريوسى . ولعل سيماخوس ، الذى كان عدواً للوفاق مع بيزنطة لم يظفر بالنجاح فى الانتخاب لكرسى البابوية إلا بفضل ثيودوريك، على الرغم من أن الانتخاب من الناحية الرسمية كان حراً . والواقع بعد ذلك أن ما حظيت به الكنيسة من الحرية زمن ثيودوريك يفوق إلى حد كبير ما نالته فى عهد كلوفيس أو جستنيان .

وقد اتحد البابا والسناتو لمناهضة بيزنطة طوال حكم الإمبراطور أناستاسيوس المارق (٤٩١ — ٥١٨) . وترتب على ارتقاء جستين العرش فى (٥١٨) وعودة حزب العقيدة السلفية السليمة إلى تولى مقاليد السلطة ، أن قامت بروما حركة تدعو إلى عودة الوفاق مع ثيودوريك . إذ إن مصالح البابا والسناتو والقوط الشرقيين ، لم تبرح واحدة ومتطابقة ، وذلك لأن ثيودوريك كان يطمع فى أن تعترف بيزنطة بابنه يوثاريك خلفاً له فى السيادة على إيطاليا بعد أن طال رفض أناستاسيوس الاعتراف به ، وبذلك يزداد مركزه قوة . وما لبث ثيودوريك حتى حصل على هذا الاعتراف المنشود فى الوقت المناسب، وبذلك انتهى الانشقاق . ومع ذلك لم تتحسن الأمور . فلم يلبث يوثاريك أن مات بعد فترة قصيرة . وجدد جستين التدابير لمناهضة الهراطقة الآريوسيين — وهى ضربة مباشرة سددت إلى المملكة القوطية . وبات التقارب بين نبلاء

وروما وبين بيزنطة شيئاً يكرهه ثيودوريك . وطفحت السنوات الأخيرة من حكمه بالشكوك التي ساورته والقساوات التي بدرت منه ، على الرغم من أنه لم يجر أي اضطهاد منظم للرومان أو للكاثوليك باستثناء ما كان من إعدام سيماخوس[1] بوئيثيوس عضو السناتو .

(١) يجب التمييز بين سيماخوس هذا الذي كان صهراً لبوئيثيوس وبين أسقف روما الذي كان يحمل الاسم عينه (سيماخوس) كما يجب تمييزه أيضاً من سيماخوس عضو السناتو في القرن الثالث وزعيم المعارضة الوثنية وضحية القديس أوغسطين ، وصديق أمبروز .